السياق النفسي في كتاب سيبويه

مجدي محمود رشاد محمد
أستاذ مساعد بكلية اللغات والترجمة
بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا

مقدمة

اللغة وعاء لفكر الإنسان فالمعاني الكامنة في النفس تبرز من خلال اللغة المكتوبة أو المنطوقة؛ لأنها أداة التعبير عما في النفس.فهي على حد تعبير ابن جني"أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(١) أو هي "عبارة المتكلم عن مقصوده"(٢)؛ فاللغة تعبر عن الأفكار، وتعبر أيضًا عن المشاعر والأحاسيس والانفعالات المختلفة عند الإنسان؛ لذا فعلم اللغة وعلم النفس يعتمدان على معطيات كل منهما للآخر بما يؤكد على أهمية العلاقة بينهما.

إلا أن الدراسات النفسية تنصب على الأدب بعيدًا عن الحقل النحوي.ذلك الحقل الذي يتهمه أحد الباحثين بأن أحكامه النحوية وقواعده هو والألفاظ العلمية والقانونية تُصاغ بأسلوب لايحتمل التأويل، أو الإيحاء بظلال معنوية أخرى، لاتكاد تترك في نفس سامعها أكثر من دلالتها المركزية أو المعجمية(٣)، على حين أن الارتباط النفسي في اللغة الأدبية محمود. الأمر الذي جعل بعض المذاهب الأدبية كالرمزية والسريالية تتخذ منه هدفًا منشودًا.

فالتحليل النفسي اللغوي أراه يتجه إلى التحليل الأدبي النفسي للغة الأدب أو شخصية الأدباء دون اهتمام التحليل النفسي اللغوي لتصنفيات اللغويين أمثال سيبويه صاحب أول تصنيف نحوي، أو باكورة تصنيفات العرب التي مزجت التحليل اللغوي بالنفس مزجًا تجعل الباحث يحتار أيهما وسيلة للآخر؟ وأصل يعتمد عليه الآخر؟ إضافة إلى أن الكتاب لسيبويه صورة تحمل فكر وشخصية ونفسية صاحبها. كل ذلك قصَّر فيه الباحثون، بل أهملوا شرح العلاقة الحيوية بين سيبويه النحوي والقاعدة النحوية؛ فمعظم

الدراسات تنصب على دراسة القاعدة النحوية نفسها. أما كيف أُنجزت هذه القاعدة؟ ولماذا صيغت بهذا الشكل؟ وما دلالتها النفسية بالنسبة لمن أنجزها؟ فكل هذه أمور غير مألوفة عند الدارسين، على الرغم من أهمية ذلك حتى نبرر الأحكام النحوية لسيبويه التي يستهجنها البعض أو نعرف الدلالة النفسية في صياغتها بهذا الشكل.

أي أن هناك تقصيرًا في الدرس النحوي في ذلك؛ مما دفعني إلى هذا البحث. إضافة إلى ما ذكرناه من أن الاتجاه النفسي كان منصبًّا على الدرس الأدبي.

على أنني أرى أن كتاب سيبويه بما يحمله من لفتات فنية نفسية كان بمثابة التربة التي نبتت فيها البذور الأولى لعلم اللغة النفسي الذي اتكأ سيبويه عليه بقصد أو بغير قصد، ثم انبثق فن البلاغة النفسية من رحم كتابه بما يحمله هذا الكتاب من أصول نفسية فيها إرهاصات بميلاد الأدب النفسي. ومع كل هذا الفضل لكتاب إمام النحاة على البلاغة النفسية فإننا نرى ثلة من أهل الدرس الأدبي يتنكرون للنحاة جهدهم بل ويحتدون عليهم بعد أن اعتنى السكاكي ت ٦٢٦هـ بتقسيم علوم العربية وتباينها.

و لم يكتف أعلام من البلاغيين بالتنكر ضد اللغويين بل سلوا أقلامهم للفصل بين علم النحو والصرف من جهة وعلم البلاغة من جهة أخرى أمثال :

ـ قدامة بن جعفر في مقدمة كتابه نقد الشعر (٤)

ـ والقاضي الجرجاني في كتابه الوساطة الذي يقسم المعترضين على المتنبي إلى فريقين أحدهما: " نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر " (٥)

ـ وابن الأثير في كتابه " المثل السائر " الذي أمعن في إبراز الحجاب بين كلتا الدراستين اللغوية والبلاغية بقوله : " أسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية، أو نقل كلمة لغوية، وما جرى هذا المجرى، وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها "(٦) وذلك ـ في رأيه ـ لأن " فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب "(٧) ويترتب على ذلك عند ابن الأثير بأن " النحاة

لا فُتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة"[٨]

وأنا هنا في بحثي أتساءل هل يصح أن تحدث مثل هذه التفرقة الحادة بين علماء في فروع لغة واحدة بدأت بخدمة القرآن؟، فيرى فريق أن هذا التركيب القرآني في إحدى القراءات أبلغ بينما يراه آخر ليس أبلغ .... هل تناسى هؤلاء المفرقون أن علوم اللغة العربية أول ما بدأت كانت لخدمة القرآن بقراءاته ؟ ذلك القرآن الذي وصفوه بأنه بليغ إلى حد الإعجاز وبأنه جاء متسقًا مع قواعدهم وسلامة لغتهم.

ولله درُّ عبد القاهر الجرجاني النحوي البلاغي[٩] الذي حق له أن يُطلق عليه إمام البلاغيين فإنه أدرك بينية تلك العلوم المتآخذة؛ فما تلفظ بقول حاد على أسلافه اللغويين بل عرف لهم حسن جميلهم في التمهيد لإزهار البلاغة العربية.

فلا عجب إذن أن نجده كثيرًا ما يدلل على آرائه بالإشارة إلى لفتات سيبويه التي بنى عليها نظريته البلاغية في النظم التي تتوخى معاني النحوالمرتبط بأساس نفسي ألا وهو المقام والحال ذلك الأساس النفسي استلهمه من الأصول النفسية في كتاب سيبويه، فتلك البذور النفسية قد نبتت وبدأت تظهر آثارها جلية فيما جاء بعد سيبويه من كتب كـ(معاني القرآن للفراء، والبيان والتبين للجاحظ، والمقتضب والكامل للمبرد، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة؟، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، والخصائص والمحتسب لابن جني، والصناعتين لأبي هلال العسكري، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، وتفسير الكشاف للزمخشري ومفتاح العلوم للسكاكي، وغيرها من أمهات كتب التراث التي تعرضت للبلاغة النفسية؛ بيد أن أحاديثهم عن ذلك الأمر لم يتجاوز الإشارات العرضية) فتلك البذور النفسية التي أنبتها سيبويه وبدأت تظهر بعده على ما بينا قد ازهرت على يد عبد القاهر الجرجاني، وتلك الجذور النفسية الراسخة بكتاب سيبويه تحتاج إلى تجليتها خاصة أن الأمر متعلق ببداية تقنين اللغة ووضع أحكامها في أول كتاب في أصول

العربية وقواعدها؛ إذ راعى صاحبه سيبويه أمورًا نفسية - بشكل عفوي أو عن قصد- ترتبط بمراعاة مقتضى الحال بين المتكلم والسامع المتمثل في ابتغاء الخفة، والسهوله، والربط بين الصوت والمعنى ... إلخ من أصول نفسية ظهرت في كتاب إمام النحاة؛ كل ذلك دفعنا إلى بحثها وإبرازها خاصة أنها في كتاب نحوي أطلق عليه "دستورالنحو" لأن النحو كما يقول بالمر: "هو الذي يجعل للغة ميزة أو خاصيّة بشريّة أساسيّة؛ وذلك أن مخلوقات أخرى يمكنها إصدار أصوات ذات مغزى، لكن الربط بين الصوت والمعنى بالنسبة إليها يكون من نوع بدائيّ مغلق. أما الربط بين الصوت والمعنى لدى البشر فيتمّ من خلال النحو" (١٠)

على أن هذا الكلام لبالمر وآخرين في العصر الحديث جعل التفكير اللغوي المتأثر بالدراسات الغربية يلفت الدارسين إلى أهمية النظر إلى تواصل العلوم وأهمية الدراسات البينية للغة، لاسيما الربط بين الدرس اللغوي والنفسي،الذي تمثل اتصالهما في اعتماد الأخير على معطيات الأول بسبب ما قدمه "النحو واللغة" من روابط بين تغير المبنى وما يتبعه من تغير في المعنى، وما كفلته حركات الإعراب من الإبانة عن المعاني، وما أتاحته تلك الحركات الإعرابية من حرية الحركة داخل تراكيبها، فجعلتها قابلة للتقديم أوالتأخير، والحذف أوالذِّكر...حسب طبيعة المتلقي وما تقتضيه أغراض التكلم في وجود القرائن الحالية والمقالية.

وقد ظهرت بدايات تلك العلاقة التي تربط بين (النحوواللغة) و(النفس) بشكل تطبيقي واضح في ما تضمنه كتاب سيبويه من لفتات وتأويلات نفسية بين تضاعيف تأليفه النحوي واللغوي، حيث كان يعتد بجانب المعنى وعناصر الأداء اللغوي من متكلم ومخاطب ومقام، حتى أصبح التقعيد اللغوي على يديه ممتزجًا بتفسيرات نفسية؛ تجعلنا نحكم على سيبويه بأنه تخطى حدود منهجه النحوي الذي غايته التقعيد للغة وضبط القوانين التي تكفل سلامة اللغة من الخطل والإلباس إلى منهج آخر نفسي تجاوز فيه حدود النحو بمحاولة استشراف الأغراض النفسية والعلل التي تلجئ المتكلم إلى تفضيل سلوك لغوي ما.

ولا يعد ذلك عيبًا أن تتسع نفسية إمام النحاة لتذوق لغتــها؛ إذ إن ســيبويه كأي بشر يحمل نفسًا إنسانية ذواقة للغتها تحس بها مبثوثة في ثنايا كتابه؛ فجاء بحثــي هذا بدراسة ذلك الجانب بمحاولة استقصاء ما ورد في كتاب سيبويه وله عُلْقَة وسبب بالجانب اللغوي النفسي واضعًا في اعتباري أمرين: الأمر الأول:استقراء الكيفيات، لا الوقوف على المصطلحات التي تتغير بين كاتــب وآخــر، وزمــن وآخــر؛ فتلــك المصطلحات لم تكن معهودة آنذاك. الأمر الثاني: أن هذا بحث مكثف فلا داعــي أن أسرد جميع الأمثلة التي أستدل بها على مسألة معينة؛ فهذا من شأن أطروحة الماجســتير والدكتوراه، بل اكتفيتُ بمثال واحد في متن البحث، أما بقية الأمثلة التي استقصــيتُها فقد أشرتُ إليها في حاشية البحث. وكانت عنايتي في هذه الدراسة ليس بالتحــدث النظري المجرد عن تحليل شخصية سيبويه، بل بالناحية التطبيقية باستعراض الأحكــام اللغوية لسيبويه وتحليلها نفسيًّا؛ موزعة على المسائل التالية:

الميل إلى مرعاة سياق الحال أو المقام

إن أبرز عناصر الدرس اللغوي النفسي عنصر خارج عن تركيبة اللغة الداخلية ذات الأصوات المفردة ثم البنية الصرفية ثم التركيب النحوى ألا وهو "الحال والمقام" بما يحويه من عناصر المتكلم والمخاطب والمشاركين في الخطاب والزمان والمكان والظروف المحيطة المؤثرة في النص اللغوي.

ولقد أَحَسَّ سيبويه بأهمية المقام لفهم الحدث اللغوي وإن لم يَذْكُر صراحة المقام أو سياق الحال إلا أنه عَرَفَه ممارسة وتطبيقًا له كقاعدة في توجيه الظواهر اللغوية، وعَبَّرَ عن سياق الحال أو المقام بمصطلح الحال في كثير من تحليلاته اللغوية(١١)، ووعى سيبويه المقام لأن اللغة المنطوقة لا تُفْهَم في حَدِّ ذاتها إلا في ضوء الملابسات والظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية للمتكلم والمخاطب والمحيطة بالخطاب اللغوي بين شخصية المتكلم والمخاطب والأفعال المصاحبة للكلام كرؤية كُلٍّ من المتحدث والمستمع وحالته وهيئته عند التحدث مثل الغضب والسعادة والحركات وتعابير الوجه

خاصة حركات الشفتين وبقية أعضاء النطق التي تؤثر في أدائه الصوتي الذي تَجَلَّى في حديثنا عن الـــتنغيم والـــنبر عند سيبويه.

وكذلك تَجَلَّى ربط سيبويه الكلام بالمقام بحديثه عن زمن الكلام، فهو يُجَوِّز الكلام بل ويستحسنه إذا ارتبط بزمان فقال " فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدًا وإذا حدث تناقض بين أول الكلام وآخره صار محالاً لا واقعًا نحو قولك أتيتك غدًا، وسآتيك أمس"(١٢)

أضف إلى ذلك حديث سيبويه عن الزمان والأماكن تحت عنوان "هذا باب ما ينتصب من الأماكن والوقت، وذلك لأنها ظروف تقع فيها الأشياء وتكون فيها"(١٣)

فتعلق الفعل بالظرف أو ما نسميه المفعول فيه (زمان أو مكان) دليل على التفاعل بين كلٍّ من العلاقة المعجمية والنحوية التي تخدم سياق الحال عامة عند الباحثين في ذلك، حيث إن تصنيف الباحثين لأمثلة أو لمواقف اجتماعية تضع في الحسبان البعدين الزماني والمكاني للحدث الكلامي بما لهما من صلة بمجموعة الملامح اللغوية.
وجُلُّ الأبحاث التي تحدثت عن الأمثال العربية بتأصيلها من كتاب سيبويه اعتمدت في بحثها على الظروف التي ورد فيها الحدث اللغوي، والبيئة التي عاش فيها المتحدث، وعاداتها، وتقاليدها، وكل شيء حولها، وأوضح ما يكون ذلك في الأمثال التي ترتبط ببيئة معينة ولا يفهم دلالتها إلا هؤلاء الذين يعيشون في هذه البيئة(١٤).

كذلك يَتَجَلَّى رَبْطُ سيبويه الكلام بالمقام بحديثه عن الأجواء والظروف والسياق في تحديد مراد الجملة، ففي تحديد مراد آياتٍ قرآنيةٍ يؤكد على أنه لابد من إدراك الملابسات المحيطة بها كأسباب النزول وزمانها ومكانها وموضوعها. فيبين أن سلامًا في قوله تعالى "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا" ليس المقصود التحية لكن السياق يبين أن معنى "سلامًا" براءة وليس المقصود الدعاء والمحبة، فيذكر"قولُك للرجل: سَلاماً، تريد تسلُّماً منك، كما قلت: براءَةً منك، تريد: لا ألتبس بشيء من أمرك. وزعم أنّ أبا ربيعةَ كان يقول: إذا لقيتَ فلانًا فُقْل (له) سَلامًا. فزعم أنه سأَله ففَسَّرَه له بمعنى براءةً منك. وزعم أنّ هذه الآية: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا)

بمترلة ذلك، لأنّ الآيَةَ فيما زَعم مكّيّةٌ، ولم يؤمَرِ المسلمون يومئذ أن يسلّموا على المشركين، ولكنّه على قولك: (براءة منكم) وتسلُّمًا، لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرَّ."(١٥)

كذلك تجلى ربط سيبويه الكلام بحديثه عن سياق الحال (السياق الاجتماعي) المتمثل في رؤية المتكلم وهيئته وحالته في حديثه عن تقدير المحذوف بقوله "وذلك قولك، إذا رأيتَ رجلاً متوجِّهًا وِجْهَةَ الحاجّ، قاصدًا في هيئة الحاجّ، فقلت: مَكّةَ وربِّ الكعبة. حيث زَكِنتَ أنَّه يريد مكّةَ، كأنَّك قلت: يريد مكّةَ واللهِ...أو رأيتَ رجلاً يسدِّدُ سَهْمًا قِبَلَ القِرطاسِ فقلتَ: القِرطاسَ واللهِ، أى يُصيبُ القِرطاسَ. وإذا سمعتَ وَقْعَ السَّهم في القرطاس قلت: القرطاسَ واللهِ، أى أَصاب القرطاسَ. ولو رأيت ناسًا يَنظرون الهِلالَ وأنت منهم بَعيدٌ فكبَّروا لقلتَ: الهلالَ وربِّ الكعبةِ، أى أَبصروا الهلالَ. أو رأيتَ ضَرْبًا فقلت على وجهِ التَّفَاؤُلِ: عبدَ الله، أى يَقَعُ بعبدِ الله أو بعبدِ الله يكونُ. ومثل ذلك أن ترى رجلاً يريد أن يوقِعَ فِعْلاً، أو رأيتَه في حـــالِ رجلٍ قد أَوْقَعَ فعلاً، أو أُخبرتَ عنه بفعلٍ، فتقول: زيدًا. تريد: اضربْ زيدًا، أو أَتَضربُ زيدًا."(١٦)

فقد أوضح أن رؤية المتكلم وحالته أو ما نسميه مشاهدة المسرح اللغوي تنبئ عن تقدير المحذوف؛ ففي المثال الأول ندرك المحذوف من خلال هيئة الحاج التي يقصدها وما يرتديه من ملابس الحاج، وكذلك قدّر المحذوف في الأمثلة التالية اعتمادًا على الرؤية والحال؛ حيث إن الرائي الذي يتحدث يشاهد أو يحس بكل ما يحيط بالحدث الكلامي من أمور تساعده على فهمه؛ لذلك ركز سيبويه على استخدام الفعل" رأى" خاصة "رأيته في حال ..." وبناء على استخدام "سياق الحال" أو نسميه بـــ"السياق الاجتماعي" فقد توصل إلى المحذوف بتقديره وتعليل حركة الإعراب.

وإن كنتُ بدأتُ حديثي تحت عنوان"مراعاة سياق الحال أو المقام" بأنه أَبْرَزُ عناصر الدرس اللغوي النفسي، فإنني أُؤَكِد على ذلك، بل وأضيف بأنه عمدة الدرس اللغوي النفسي الذي تدور حوله بقية عناصر ذلك البحث التالية:

الميل إلى الإضمار

الإضمار أي الحذف بيد أن البحث آثر جعل العنوان بـ"الإضمار" – ذلك المصطلح الذي ذكره سيبويه كثيرًا– لأنه يتناسب مع طبيعة ذلك البحث النفسي؛ لما للإضمار من أبعاد كامنة في نفس الإنسان.

وأحيانًا تتسم النفس الإنسانية بالجنوح للإضمار في الأدء اللغوي الذي قد يتناسب مع مراد المتكلم بتوطئته للكشف الأعمق عن مستوى باطني للكلام مُحَمَّل بإيحاءات بلاغية جميلة باحترام المقام الذي يتسع السياق للدلالة على المحذوف في الكلام؛ فهذا أمر جلّاه سيبويه بالشكل الآتي:

- تأويله لبعض الشواهد التي تحمل معنى باطنًا؛ فكان سيبويه ينبه على ذلك بقوله:"أراد...،أو بمعنى...،أو كأنه قال..." ففي (باب يُحْذَف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمترلة المثل) ذكر فيه:" وذلك قولك:" هذا ولا زَعَماتِك" أي: ولا أتوهم زَعَماتِك" ومن ذلك قول الشاعر:

دِيَارَ مَيَّة إذ ميٌّ تساعِفنا   ولا يُرى مثلُهاعُجمٌ ولا عُربُ

كأنه قال: أذْكُر ديارَ ميَّة. ولكنه لا يذكر أذكرُ لكثرة ذلك في كلامهم واستعمالهم إيّاه، ولما كان فيه من ذكر الديار قبل ذلك و لم يذكر: ولا أتوهَّمُ زعماتك لكثرة استعمالهم إيّاه، ولاستدلاله مما يرى من حاله أنَّه ينهاه عن زعمه"(١٧)

كذلك أوّل سيبويه ما جاء من كلمات مؤنثة حذفت منها علامة التأنيث مما على وزن فاعل على أن العرب حذفوا علامة التأنيث لأنهم حملوه على المعنى كأنهم قالوا: هذا شيء حائض، والشيء مذكر(١٨)

فهذا أحد مظاهر التأويل بالنية لأن (الشيء) المحذوف لا وجود له في الصيغة الشكلية. غير أنه اعتبار في الذهن والخلد والنفس.

كذلك خرّج سيبويه حذف تاء التأنيث من العدد"ثلاث شخوص"(١٩) على أن الشخص حملوه على معنى الأنثى.

وأكتفي بهذا التمثيل ولا أريد أن أستقصي كل أمثلة الحذف عند سيبويه والتي أوَّلها على أنها تحمل معنى باطنًا.

إذن تشيع عند سيبويه تقنية استبطان البعد النفسى أثناء تأويلاته بـــ"الحمل على المعنى" التى يلجأ إليه للتوفيق بين القاعدة والمثال الخارج عن القاعدة، وسيبويه أشاع وأكثر في كتابه من توجيه الإعراب بحسب المعنى وفاعليته، والإعراب – عنده- يقبح مالم يتمش مع نية المتكلم أو الغرض والقصد الذي سيق من أجله الكلام كما في باب إضمار الفعل بقبح الكلام إذا حمل آخره على أوله وباب وقوع الأسماء ظرفًا وتصحيح اللفظ على المعنى وباب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره في غير الأمر والنهي.

فسيبويه يذكر – في هذا الباب– على أن المعنى النفسي المعتمل في الأفئدة هو الموجه أولاً للألفاظ التى يتوخاه المقصد؛ ولذلك لجأ الى التأويل والحمل على المعنى كمظهر للصحة والجمال معًا.

فسيبويه كما يذكر شوقي ضيف عنه "ويخيَّل لمن يتابع سيبويه أن ليس في اللغة معمول لا يحذف وحتى الجملة تحذف... وأكثر سيبويه من تحليله للعبارات حتى تتجه مع ما يراه لألفاظها من إعراب..."(٢٠)

وفكرة "القصد عند المتكلم "أصبحت ضمن الوعي النحوي عند سيبويه كما يذكر الشاطبي"...وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به حتى إنه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعانى"(٢١)

– استخدام سيبويه في أحكام لغوية عديدة مصطلح "الإضمار"(٢٢) أو "الحـــذف" في ثنايا أحاديثه عن الحذف؛ كالحذف في علامات الإعراب، إذ يستبدل بالحركة السكون في الوقف، وكالحذف في باب التنوين، فيحذف لعوض أولغير عوض، كالحـــذف في الكلمات فيُحذف حرف منها، أو يُحذف الحرف القـــائم بنفســـه، وكالحـــذف في التراكيب ، فيُحذف منها أجزاء مفردة أو تُحذف جُمَلٌ.

وكثيرًا ما أشار سيبويه إلى أسرارها النفسية ملفتًا النظـــر إلى أهميـــة تـــوافر القرائن؛ حتى يكون الحذف صحيحًا مؤديًّا غرضه في الفهم والإفهام.

ففي (باب مايكون في اللفظ من الأعراض) يقول:" اعلم أنَّهم ممّا يحذفون الكلمَ، وإن كان أصله في الكلام، غير ذلك، ويحذفون، ويعوِّضون، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطًا وسترى ذلك إن شاء الله"(٢٣)

فقد وضع أسسًا عامة مجملة ثم تولى تفصيلها فيما بعد محللاً ومفســرًا مـــن خلال (باب يُحْذَف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل)(٢٤)، و(بـــاب حروف الإضافة إلى المحلوف به وسقوطها)(٢٥)، و(باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتِّساعِهم في الكلام والإيجاز والاختصار)(٢٦)

ويمكن عرض الأغراض النفسية للحذف والإضمار في كتاب ســيبويه في الأغــراض الآتية: الحذف والإضمار للتخفيف(٢٧)ــــ وللاتســـاع(٢٨)ــــ وللإيجـــاز(٢٩)ــــ وللاختصار(٣٠)، ولكثرة الاستعمال.(٣١)

وهكذا رأينا أن الحذف فرضته أمور نفسية تتمثل في سهولة النطق والبعد عن الثقـــل والسلاسة والسهولة... كل ذلك مما سبق ذكره عند سيبويه.

– جاء الإضمار بمفهوم التقدير عند سيبويه في (بابٌ منه يُضمِرون فيه الفِعْـــلَ لقـــبح الكلام إذا حُمل آخِرُه على أوّله)"وذلك قولك: مالك وزيدًا، وما شأْنُك وعمرًا. فإنَّما حدُّ الكلام ههنا: ما شأنك وشأن عمرو. فإن حملت الكلام على الكاف المضمرة فهو قبيح، وإن حملتَه على الشأنِ لم يجزْ لأنّ الشأنَ ليس يَلتبس بعبدِ الله، إنّما يَلتـــبس بـــه الرجُل المضمَرُ فى الشأْنِ. فلما كان ذلك قبيحاً حملوه على الفعل، فقالوا: ما شـــأْنُك وزيدًا، أى ما شأْنُك وتناولُك زيدًا."(٣٢)

– جاء الإضمار بمفهوم النية عند سيبويه في (هذا باب ما يكون مَعطوفًا فى هذا الباب على الفاعل المضمَرِ فى النيّةِ)(٣٣)

– كذلك فطن سيبويه إلى أن هناك ربطًا بديعيًّا نفسيًّا بين التقـــدير المضـــمر والمقـــام فذكر" ومما يضمر لأنه يفسره ما بعده ولا يكون في موضعه مظهرٌ قول العرب: إنـــه

كِرامٌ قومُك، وإنه ذاهبةٌ أمتُك. فالهاء إضمارُ الحديث الذي ذكرتَ بعد الهاء، كأنه في التقدير – وإن كان لا يُتكلم به – قال: إن الأمر ذاهبةٌ أمتُك وفاعلةٌ فلانة، فصار هذا الكلام كله خبرًا للأمر، فكذلك ما بعد هذا في موضع خبره."(٣٤) فضمير الشأن في "إنه ذاهبةٌ أمتُك" تم تفسيره بعوده على متأخر بل يعود على متقدم. وذلك الخروج على الأصل جاء تحصيلاً للبلاغة فيه؛ لأن الضمير جاء أولاً وتفسيره جاء ثانيًا؛ حيث إن الشيء إذا كان مبهمًا أولاً فتتطلع نفس المتلقي إلى فهمه وتشوق إلى الفهم بعد الإضمار، إضافة إلى ما ذكرناه من أن الخروج على الأصل جاء لأسباب سياقية أخرى تتمثل في مراعاة حال المتكلم عند عنايته بالمواضع البليغة الضخمة.

كذلك من أبرز ما فطن إليه سيبويه ربطه الكلام بالسياق والمقام؛ فمن ذلك قول"وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: عبد الله وربي، كأنك قلت: ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله. أو سمعتَ صوتًا فعرفتَ صاحبَ الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت: زيد وربي. أو مسِسْتَ جسدًا أو شممت ريحًا فقلت: زيد، أو المِسك. أو ذقتَ طعامًا فقلت: العسل.

ولو حُدِّثتَ عن شمائل رجلٍ فصار آية لك على معرفته لقلت: عبد الله. كأن رجلاً قال: مررتُ برجل راحم للمساكين بارٍّ بوالديه، فقلت: فلان واللهِ؟"(٣٥)

فسياق الحال هنا مطلوب في فهم أن المبتدأ محذوف.

كذلك جاء الإضمار بمفهوم النية عند سيبويه في قوله "هذا باب ما يُضْمَرُ فيه الفعلُ المستعمَل إظهارُه بعد حرفٍ"وذلك قولك: " الناسُ مَجزيُّونَ بأَعمالهم إنْ خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ"(٣٦)

وجمال الإضمار يرجع إلى سبب نفسي؛ فهو يؤدي إلى أن يتجاوب السامع مع المتكلم بمشاركته في تكملة الكلام وبيان المراد؛ إحساسًا منه بالإضمار اللغوي الذي يستدعي عمل الفكر وحصر الذهن، وذلك " لأنه يترك على أطراف المعانى ظلالاً خفيفة يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال، حتى تبرز، وتتلون، وتتسع، فيزيد بطريق الإيحاء من دلالة الكلام"(٣٧) أو أن جمال الحذف يكمن في أن كلاً منَّا تذهب نفسه في تقديره كل مذهب، وإلى أقصى غاية ممكنة. وكل منَّا متفاوت في سعة خياله وتصوره وفسحة نظره.

وبجانب هذا السر الجمالي للإضمار، فإن سيبويه قد ربطه بالمقام والحال حينما قيده بعلم المخاطب بالمعنى فقال:" (وَمَثَلُ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً)، وإنَّما شُبِّهوا بالمنعوق به. وإنَّما المعنى: مَثَلُكم ومَثَلُ الذين كفروا كمثل الناعِق والمنعوقِ به الذى لا يَسمع. ولكنه جاء على سعة الكلام والإِيجاز لعلم المخاطَب بالمعنى."(٣٨)

وقد أدرك الشيخ المراغي تلك الأمور عند سيبويه فقال: "إن سيبويه وأضرابه أرادوا بالنحو السبيل الذي سلكته العرب في التعبير عن أغراضها ومقاصدها، ويشمل ذلك ... تأليف الجمل، وبيان ما يجب أن تكون عليه الجملة وحدها، أو الجملة مع الجمل التي تؤدي الأغراض التي تختلج في صدور المتكلمين...وذلك أن لكل كلمة وحدها معنى تكفلت اللغة بشرحه وبيانه، وللكلمات وهي في التركيب معنى خاص، هو صورة لما يقوم في أنفسنا من المعاني التي نريد إفهامها المخاطبين"(٣٩)

وإن كان الشيخ المراغي أجاد في التعبير عن إدراك سيبويه وتحليله للسبيل الذي سلكته العرب في التعبير عن أغراضها. فإننا كذلك نجد جماعة من أهل الغرب أشادوا بربط سيبويه الكلام السطحي بالأغراض النفسية أو البنية العميقة المضمرة أو المقدرة أو المنوية أو المؤولة حملاً على المعنى... فعبر عن ذلك بوهاش وزميلاه "وبعبارة أدق، فإن نسق التحليل عند سيبويه يقتضي أساسًا أن أي ملفوظ هو في النهاية نتيجة لسلسلة من العمليات التى ينجزها المتكلم، وكل واحدة من هذه العمليات هى صورية ودلالية في آن واحد"(٤٠)

الميل إلى التوضيح

أحيانًا تجنح النفس الإنسانية للتوضيح بزيادات لغوية كزيادة حروف المعاني أو بعض الحروف المفردة أو الأفعال؛ حيث استبان من أحاديث سيبويه عن الزيادة بأنها ليست لغوًا "فارغًا ولكنها نافلة من اللفظ تُكسِبُ العبارة فَضْلَ توكيدٍ كما يقول النحويون، لكنهم لم يبينوا لنا المراد بالتوكيد الذي تفيده العبارة منها، ولا كيف

يكون؟ ولعل ذلك ـــ والله أعلم ـــ لتعدُّد حروف الزيادة. وتنوُّعِ الأساليب التى تقع فيها، وكأنهم تركوا لكل حرف زائد أن يدلَّ على نوع توكيده فى الأسلوب الذى يذكر فيه، وتركوا للحس وحده أن يتذوقه وينفعل به حيثما يكون"(٤١)

فمن ذلك زيادة الحرف عند سيبويه للتوكيد فيقول عن ما: "وأمَّا (ما) فهي نفي لقوله: هو يفعل إذا كان فى حال الفعل، فتقول: ما يَفْعَلُ .. وتكون توكيدًا لغوًا وذلك قولك: متى ما تأتنى آتك، وقولُك : غَضبتَ منْ غير ما جُرم، وقال الله عز وجل:(فَبِمَا نَقْضِهِم) وهى لغو في أنها لم تُحدثْ إذا جاءت شيئًا لم يكن قبل أن تجيءَ من العمل وهى توكيدٌ للكلام"(٤٢)

ومن ذلك زيادة الاسم "الضمير" للتوضيح وإزالة اللبس من مثل حديثه عن زيادة الكاف مع رويد مبيّنًا الغرض النفسي لتلك الزيادة ألا وهو التخصيص، فيقول: "واعلم أن رُوَيْدًا تلحقها الكاف وهى فى موضع أفعل، وذلك قولك: رويدك زيدًا، ورويدكم زيدًا ، وهذه الكاف التى لحقت رويدًا: إنما لحقت لتُبيِّنَ المخاطبَ المخصوصَ، لأن رُوَيْدًا تقع للواحد والجميع الذكر والأنثى، فإنما أدخل الكاف حين خاف التباسَ من يعني بمن لا يعني، وإنما حذفها فى الأوَّل استغناءً بعلم المُخاطبِ أنه لا يعني غيرَه . فلحاقُ الكاف كقولك : يا فلانُ، للرجل حتى يُقْبِلَ عليك، وتركُها كقولك للرجل : أنتَ تفعل، إذا كان مُقبلاً عليك بوجهه مُنصتًا لك فتركتَ يا فلانُ حين قلت: أنت تَفعَلُ؛ استغناءً بإقبالِه عليك. وقد تقول أيضًا: رويدك لمن لا يُخَاف أن يلتبسَ بسواه توكيدًا، كما تقول للمقبل عليك المنصت لك: أنت تفعل ذاك يا فلان توكيدًا .. فهذه الكاف لم تجئ علمًا للمأمورينَ والمنهيينَ المضمرين ولو كانت علمًا للمضمرين لكانت خطأ، لأن المضمرين ها هنا فاعلون، وعلامة المضمرين الفاعلين الواوُ كقولك: افعلوا، وإنما جاءت هذه الكاف توكيدًا وتخصيصًا.."(٤٣)

ومن ذلك زيادة الفعل كإشارة سيبويه إلى زيادة الفعل "كان" بين ما التعجبية وفعل التعجب إذ يقول "وتقول: ما كان أحسن زيدًا، لتدل أنه فيما مضى"(٤٤)

فالغرض من زيادة الفعل "كان" المهمل وغير العامل نحويًّا إنما غرض نفسي وهو تحديد زمن التعجب وأنه فيما مضى.

هذه ثلاثة نماذج من الزيادات دالة على ربط سيبويه بين الزيادة ودلالتها، وقد قصدت أن تكون متنوعة من الأفعال والأسماء والحروف،شاملة بذلك جميع أنواع الكلم(فعل- اسم- حرف) وأبرز الحرف لأن أمثلة الزيادة في كتاب سيبويه جاءت جُلّها في الحروف. ولعل سيبويه يكون أول من تناول الزيادة وسرها البلاغي(٤٥). إضافة إلى ربطها بالحال المشاهدة المصاحبة للأداء اللغوي في قوله "مُقبِلاً عليك بوجهه مُنصتًا لك ...استغناءً بإقبالِه عليك... للمُقْبِل عليك المُنْصِت لك" زيادات من سيبويه في كتابه(٤٦) دلالة على الحال المشاهدة التي تغني لغويًّا عن الحذف المصحوب ببيان الحال وذكر أدق التفاصيل المشاهدة. تلك التفاصيل أو الحال المشاهدة تدخل في باب الذكر اللغوي أو الزيادة اللغوية التي تُغنينا عن حذف أحد عناصر أصوات اللغة بل تجعل التركيب أكثر وضوحًا.

تعقيب على الإضمار والتوضيح

وإذا كانت الزيادة أو الحذف تكمن بهما قيم نفسية بلاغية، فإن كلاً منهما له مواضعه ومقاماته المرتبطة بحال المتلقي وطبيعة المقال وإلا كان قبيحًا، وتكون الأريحية والأفضلية للذِّكْر بعيدًا عن الحذف والزيادة. فهذا ما أكده سيبويه في أحاديثه عن الذِّكْر الذي يكون الإتيان به يُنبئ عن أغراض المتكلم تفتقد مع الحذف أو الزيادة، ولا تتأتى لنا تلك القيم إلا بالذِّكْر المجرد؛ فمن ذلك تناوله لضمير الفصل في قوله: "واعلم أن ما كان فصلاً لا يغير ما بعده عن حاله التي كان عليها قبل أن يُذْكَر، وقال الله عز وجل : (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق) .. فصار هو وأخواتها هنا بمنزلة (ما) إذا كانت لغوًا، في أنها لا تغير ما بعدها عن حاله قبل أن تذكر... واعلم أن (هو) لا يحسن أن تكون فصلاً حتى يكون ما بعدها معرفة أو ما أشبه المعرفة مما طال و لم تدخله الألف واللام فضارع زيدًا وعمرًا نحو خير منك، ومثلك .. كما أنها لا تكون في الفصل إلا وقبلها معرفة أو ما ضارعها، كذلك لا يكون ما بعدها إلا معرفة أو ما ضارعها. لو قلت: كان زيد هو منطلقًا كان قبيحًا

حتى تذكر الأسماء التي ذكرتُ لك من المعرفة أو ما ضارعها من النكرة مما لا يدخله الألف واللام"

فَذِكْرُ الضمير قد تستقبحه النفس أحيانًا عندما لا يوضع في تركيبه الوضع الملائم الذي حدده سيبويه في تقعيده لضمير الفصل.

وأحيانًا أخرى نجد نفسية سيبويه تتقبل بالاستحسان ضميرًا آخر تَحْدثُ فيه زيادة عند لهجات بعض العرب الذين يضيفون على "كاف الخطاب للمؤنث" شينًا. فهذا أمر تستحسنه نفس سيبويه لأمن اللبس في حالة الوقف على "كاف الخطاب" حيث يكون الوقف على السكون فيلتبس المذكر (كَ) بالمؤنث(كِ) فتزاد الشين مع "كاف الخطاب للمؤنث". فبرر سيبويه ذلك في حديثه ـ عما نسميه بظاهرة الكشكشه المذمومة[٤٧] فقال سيبويه: "هذا باب الكاف التى هى علامة المضمر. اعلم أنها فى التأنيث مكسورة وفى المذكَّر مفتوحة. وذلك قولك: رأيتُكِ للمرأة، ورأيتكَ للرجل. فأمّا ناس كثير من تميم وناس من أسد فإنّهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين وذلك أنهم أرادوا البيان فى الوقف، لأنها ساكنة فى الوقف فأرادوا أن يفصلوا بين المذكَّر والمؤنث"[٤٨]

ويدخل تحت باب الميل إلى التوضيح وعدم الإبهام حديث سيبويه عن التعريف وعدم الإبهام بتعريف المندوب وعدم تنكيره؛ فالتنكير في الندبة قبيح؛لأن أي مندوب في أزمة شديدة لابد أن يكون معروفًا؛ فلا يعقل أن تجزع النفس أوتتفجع على شخص مجهول، وذلك ما ذكره سيبويه في (هذا باب مالا يجوز أن يندب) وذلك قولك: وارَجُلاه ويا رُجلاه. وزعم الخليل رحمه الله ويونس أنه قبيح، وأنه لا يقال. وقال الخليل رحمه الله: إنما قبح لأنك أبهمت. ألا ترى أنك لو قلت واهذاه، كان قبيحًا، لأنك إذا ندبت فإنما ينبغي لك أن تفجع بأعرف الأسماء، وأن تخص ولا تُبهم؛ لأن الندبة على البيان، ولو جاز هذا لجاز يا رجلا ظريفًا، فكنت نادبًا نكرة. وإنما كرهوا ذلك أنه تفاحَش عندهم أن يختلطوا وأن يتفجعوا على غير معروف. فكذلك تفاحش عندهم في المبهَم لإبهامه؛ لأنك إذا ندبت تُخبر أنك قد وقعت في عظيم، وأصابك جسيمٌ من الأمر، فلا ينبغي لك أن تُبهم...كأن التبيين في الندبة عذر للتفجع فعلى هذا جرت الندبة في كلام العرب"[٤٩] فإذا كان الحال حال تفجع فإن التنكير

لايجوز؛ لأن النفس البشرية تريد من التفجع الكشف عن الذي نتفجع عليه، ولا يتأتى ذلك بتنكير وإبهام المندوب، بل بتعريفه وتوضيحه، إذ كيف تتفجع النفس على شخص غير معروف، أو أمر غير معلوم.

والنفس الإنسانية السليمة لا تتفجع على نكرة بل تذهب في التعريف بالمندوب بأعرف الأسماء توخيًا للقصد من التفجع بأبلغ بيان.

الميل إلى التقديم والتأخير

إن من أهم ما يربط نفس الإنسان بلغته هو أن النفس الإنسانية تتوق أحيانًا إلى أن تعبر عن نفسها بأداء لغوي خارج عن المألوف كتقديم ماحقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم؛ لتحقيق أغراض نفسية تعرض لجلّها سيبويه مثل:

١ـ الشك بعد اليقين:

أدرك سيبويه عند "التقديم والتأخير" غرضًا له قيمته في التحليل النفسي ألا وهو التأكيد أو الشك بعد اليقين فأورده في باب(الأفعال التي تستعمل وتلغى) "فإن ألغيتَ قلتَ:عبدُ الله أظن ذاهبٌ، وهذا إخَالُ أخوك، وفيها أُرَى أبوك، وكلما أردتَ الإلغاء فالتأخير أقوى، وكلٌّ عربي جيد.. وإنما كان التأخيرُ أقوى؛ لأنه إنما يَجِيءُ بالشَّكُّ بعد ما يمضِي كلامُه على اليقين، أوبعد ما يبتدىء وهو يريد اليقين ثم يدركه الشَّكُّ، كما تقول عبدُالله صاحبُ ذاك بَلَغَنِي، وكما قال: من يقول ذاك تدرى، فأخَّر ما لم يعمل في أول كلامه، وإنما جَعَلَ ذلك فيما بلغه بعد ما مَضَى كلامه على اليقين وفيما يدرى .. وكلما طال الكلام ضعف التأخير إذا أعملتَ، وذلك قولك: زيدًا أخاك أَظنُّ، فهذا ضعيف كما يضعف زيدًا قائمًا ضربت، لأن الحدَّ أن يكون الفعل مُبتدأ إذا عَمِلَ"(٥٠)

٢ـ العناية والاهتمام بالمتقدم

لقد فطن سيبويه إلى العلة الكبرى التي تدعو المتكلم لأن يقدم ويؤخر في كلامه حسبما يقتضيه المقام ومقتضى الحال ألا وهي علة "العناية والاهتمام" فقد جاءت جُلُّ الأغراض النفسية للتقديمات عند سيبويه تحتها.

وقد صرح بذلك عند قوله "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى فى الأول، وذلك قولك: ضرب زيدًا عبدالله، لأنك إنما أردت به مؤخرًا ما أردت به مقدمًا، و لم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخرًا فى اللفظ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدمًا وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى"(٥١)

٣ـ التنبيه

إن كان سيبويه عند "التقديم والتأخير " ذكر " العناية والاهتمام" فقد أحسَّ بغرض آخر وهو "تنبيه المخاطب إلى المحدَّث عنه" كتنبيه المخاطب لذلك الاسم الذي أجاز الابتداء به في باب الأمر والنهى بقوله: "وقد يكون في الأمر والنهى أن يُبْنَى الفعلُ على الاسم، وذلك قولك: عبدُالله اضْرِبْهُ، ابتدأت عبدَالله فرفعتَه بالابتداء، ونبَّهْتَ المُخاطَبَ له لتُعرِّفَهُ باسمه، ثم بنيتَ الفعل عليه كما فعلت ذلك في الخبر(٥٢)، مثل ذلك: أما زيدٌ فاقْتُلْهُ"(٥٣)

تعقيب على الميل إلى التقديم والتأخير:

على الرغم مما ذكرناه من أن سيبويه في تناوله للتقديم والتأخير تخطى حدود المعالجة النحوية من حيث الوجوب والجواز إلى استشراف أغراضه النفسية الجمالية، على الرغم من ذلك إلا أن سيبويه لا يرى دائمًا الحسن والجمال في التقديم والتأخير، فأحيانًا لا يستحسنه كما في باب " إضمار المفعولين اللذين تعدى إليهما فعل الفاعل"، بل أحيانًا يستقبحه ولا يجيزه إلا للضرورة الشعرية في باب "ما يحتمل الشعر" ولا يحتفي بأغراضه النفسية إلا إذا احتاج المقام لذلك.

الميل إلى التخفيف

تجنح النفس الإنسانية عند معظم المتكلمين إلى أن تصل إلى غرضها بأقل جهد ممكن باستخدام قانون الاقتصاد في الجهد، والحذف؛ طلبًا للتخفيف، والبعد عن الثقل المرتكز على ذوق الناطقين وإحساسهم المؤسس على العلل النفسية مثل:

- الاقتصاد في الجهد الحركي عند عملية النطق طلبًا للخفة؛ ولذلك حرصت نفسية المتكلم على "كراهية توالي المثلين المتقاربين والمتعارضين"، فهربت نفسية المتكلم من أزمة تجاور الأصوات التي تتسم بالثقل عن طريق الإدغام والإخفاء والإقلاب والإعلال والإبدال والثقل والقلب والحذف والمناسبة.(٥٤)

- الحذف إيثارًا للخفة، خاصة عند كثرة الاستعمال، فمن ذلك ما ذكره سيبويه في"هذا باب يحذف المستثنى فيه استخفافًا، وذلك قولك: ليس غير، وليس إلا، كأنه قال: ليس إلا ذاك، وليس غير ذاك، ولكنهم حذفوا ذلك تخفيفًا، واكتفاء بعلم المخاطب بما يعني"(٥٥)

كل ذلك يؤكد اعتداد سيبويه عند تحليله بالعلة النفسية للحذف ألا وهي التخفيف.

تعقيب على طلب التخفيف: على الرغم مما ذكرناه من أن سيبويه في تناوله للحذف والاقتصاد في النطق قد احتفى بالتخفيف كعلة نفسية، على الرغم من ذلك إلا أن سيبويه لا يرى دائمًا الحسن والجمال في التخفيف، فأحيانًا لايستحسنه كما في قوله:"فقد يشذ الشيء من كلامهم عن نظائره، ويستخفون الشيء في موضع ولا يستخفونه في غيره"(٥٦)

الميل إلى أمن اللبس

تطمح النفس الإنسانية عند الأداء اللغوي إلى أمن اللبس والفهم والإفهام؛ فرسالة اللغة أن تخرج النفس من حيرة وخفاء إلى جلاء سهل بعيد عن توهم السامع. وإذا كانت عملية الكلام تنبني في أساسها على التعبير عن غرض المتكلم، فإن نجاحها يتوقف على مراعاة حال السامع وفهمه لقصد المتحدث من ذلك الكلام حتى تتحقق معه الإفادة التي يجنيها السامع.

وللبعد عن التوهم المؤدي للبس وعدم الإفهام يرى سيبويه إلزام المتكلم مراعاة أن يبدأ كلامه بما هو معروف عند المتلقي ثم يُخْبِر عنه بعد ذلك فيقول: "واعلم أنه إذا وقع في هذا الباب ــ كان وأخواتها ــ نكرة ومعرفة، فالذي تَشْغَلُ به كان

المعرفة، لأنه حدّ الكلام، لأنهما شيء واحد، وليس بمنزلة قولك: ضَرَبَ رجلٌ زيدًا، لأنهما شيئان مختلفان، وهما في كان بمنزلتهما في الابتداء إذا قلت: عبدُالله منطلقٌ، تبتديء بالأعرف ثم تذكر الخبر، وذلك قولك كان زيدٌ حليمًا، وكان حليمًا زيدٌ، لا عليك أقدَّمتَ أم أخَّرتَ، إلا أنه على ما وصفت لك في قولك ضرب زيدًا عبدُالله فإذا قلت: كان زيد، فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثلَه عندك، فإنما ينتظر الخبر، فإذا قلت: حليمًا فقد أعلمتَه مثْلَ ما علمتَ، فإذا قلت: كان حليمًا فإنما ينتظر أن تُعرِّفه صاحبَ الصفة، فهو مبدوء به في الفعل وإنْ كان مؤخّرًا في اللفظ... فإن قلت: كان حليمٌ أو رجلٌ فقد بدأت بنكرة، ولا يستقيم أن تُخبرَ المخاطَبَ عن المنكور، وليس هذا بالذي يَنْزِلُ به المخاطَبُ منزلتَك في المعرفة فكرهوا أن يقربوا باب لَبْسٍ"(٥٧)

بناء على كلام سيبويه لا يجوز أن يبدأ المتكلم حديثه بمنكور لما في ذلك من اللبس وعدم الإفهام على المتلقين من قبل المتكلمين الذين حظر عليهم "أن تقربوا باب لبس"على حد تعبيره بما تحمله هذه العبارة من ربط بين تلك العلة وحالة المتلقي النفسية. ،وإذا كان في النص السابق لسيبويه يرفض فيه التركيب؛ لما فيه من لبس على المخاطب وتلك علة نفسية، فإننا نراه أحيانًا يُبَيِّن الغرض النفسي من أمن اللبس متمثلاً في التوكيد؛ حيث أوضح أن حذف كاف الخطاب من رُويدَ زيدا. أي:أرود زيدًا استغناء بعلم المخاطب أنه لا يقصد غيره. وقد تذكر الكاف مع أمن الالتباس، فيصبح ذكرها في تلك الحالة من قبيل التوكيد.ذكر سيبويه عن هذه الكاف:"وإنما حذفها...استغناء بعلم المخاطب أنه لا يعني غيره...وقد تقول أيضًا: رويدك لمن لا يُخاف أن يلتبس بسواه توكيدًا، كما تقول للمُقبِل عليك المُنْصِت لك: أنت تفعل ذاك يافلان توكيدًا"(٥٨)

و لم يقف سيبويه على ربط أمن اللبس بالتوكيد بقوله"توكيدًا" والحال المشاهدة بقوله" للمُقْبِل عليك بوجهه المُنْصِت لك" في النص السابق، وكذلك لم يقف تعليله الفائت على ضرورة البدء بالمسند إليه مُعرَّفًا وربط ذلك بنفسية المتلقي في النص المذكور أولاً بل تعداه إلى نصوص كثيرة متعلقة بالتعريف والتنكير.(٥٩)، ومتعلقة بالتقديم والتأخير(٦٠)،ومتعلقة بالحذف والإضمار(٦١).

بيد أنها جاءت متناثرة في تضاعيف كتابه ولوأنها جُمِعت ونُظمت في خيط واحد لأعطتنا فكرة عن فطنة سيبويه وحسه المرهف تجاه الغرض النفسي المتعلق بالإفهام وأمن اللبس(٦٢).

الميل إلى الفهم والإفهام

الفهم (من السامع) والإفهام (من القائل) غرض نفسي له اتصال حميم بالإعراب؛ إذ الإعراب عند سيبويه فرع للمعنى المرتبط بحركات الإعرب التي تبين أغراض المتكلمين كقولنا : ما أحسنَ زيدًا (للتعجب) وما أحسن زيدٍ (للاستفهام) وما أحسن زيدٌ (للنفي)

فبيَّن سيبويه في أكثر من موضع من الكتاب أن الأداة "ما" نحكم عليها بأنها تعجبية أو مصدرية أو موصولة أو استفهامية... بحسب ما يقتضيه الحال والسياق الذي ورت فيه، فالرسم الإملائي لـ"ما" ثابت وإنما الذي تغير سياقها؛فتبع ذلك تغير الدلالة والإعراب.

وساق مثالاً للموصولة بقوله تعالى "ما عندكم ينفد وما عند الله باق"

وساق مثالاً للمصدرية بقوله تعالى " عزيز عليه ما عنتم "

وساق مثالاً للاستفهامية بقوله تعالى "قالو ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها"

وساق مثالاً للتعجبية بقوله تعالى "ما أحسن عبدالله" بمعنى"شيءأحسن عبدالله"

وكثيرًا ما أكد سيبويه على أن لكل وجه إعرابي موضعًا يحسن فيه حسب سياق الكلمات داخل تراكيبها ومراد المتكلم ومقتضى الحال . فلقد أورد سيبويه أمثلة كثيرة تربط بين الحركات الإعرابية وأغراض المتكلمين داخل سياق وملابسات وظروف قائليها فمن ذلك ما ذكره في(باب من الاختصاص يجرى على ما جرى عليه النداء) حيث يقول: "وأما قول لبيد:

نحنُ بَنُو أُمِّ البنينَ الأَرْبَعَه   ونحنُ خيرُ عامرِ بنِ صَعْصَعَهْ

فلا ينشدونه إلا رفعًا، لأنه لم يُرِدْ أن يجعلهم إذا افتخروا أن يُعْرَفوا بأنّ عدَّتَهم أربعة، ولكنه جعل الأربعة وصفًا ثم قال: المطعمون، الفاعلون، بعدما حَلاَّهم ليُعْرَفوا"(٦٣)

وذلك لأن نَصْب"بني" على الاختصاص المفيد للتعظيم والافتخار غير مقصود هنا حسب تعبيره "لأنه لم يرد..."، وإنما رَفَعَ الشاعرُ وقال "بنو" لأن "الأربعة" لا تدل على معنى الفخر أو التعظيم، وإنما هو مخبر بعددهم، ونسبهم : ليعرفوا. فسيبويه يُوَجِّه نَصْب أو رفع "بني" تبعًا لقصد المتكلم؛ ليؤكد لنا أن أساس التحدث هو غرض المتكلم،فتبعًا له يتشكل الملفوظ.

فيبرز لنا اتصال اللغة عامة أو النحو خاصة بعلم النفس حيث إن القصد من الكلام اهتمَّ به اهتمامًا بالغًا سيبويه واللغويون من بعده فمثلاً ابن هشام يعرف الكلام بقوله"القول المفيد بالقصد"(٦٤) قبل أن تنشأ الدراسات الحديثة التي تجعل القصدية مرتكزًا لتتناول المنطوق بالتحليل، فقد اهتمَّ بها علماء الاجتماع، وعلماء الفلسفة، وعلماء النفس...(٦٥)

فمما لاشك فيه أن سيبويه قد وضع أيدينا على الرباط الوثيق بين المعنى(القصد) والنحو.

فسيبويه دائمًا يؤكد على ارتباط الحكم الإعرابي بمقاصد النفس بأمثلة كثيرة.(٦٦)

توخي التآم النَّظْم

نَظْم الكلام على شكل متسق مع قواعد اللغة غرض نفسي أحس فيه سيبويه بأن الاستقامة والحسن والقبح قائم على توخي قواعد اللغة(٦٧)؛ فذكر ذلك في (باب الاستقامة من الكلام والإحالة) قائلاً: " ...فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمسِ وسآتيك غدًا، وأما المحال، فأن تَنْقُض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدًا،وسآتيك أمس... وأما المستقيم القبيح فأن تَضعَ اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدًا رأيتُ، وكي زيدًا يأتيك، وأشباه هذا..." (٦٨)

فلقد أحس سيبويه بالأثر النفسي الذي يحدثه حسن الكلام في نفوس متلقيه عندما يكون الكلام متسقًا مع قواعد اللغة وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بنظم الكلام، غير أن سيبويه عبرعن ذلك في أكثر من موطن بالتأليف (الحسن أو القبيح)(٦٩)

أي أن الكلام مرتبط بالنفس وارتبطت معه أحكامه وقواعده وذلك "لأن ما يخرج بالصوت يدلّ على ما في النفس... والتي في النفس تدلّ على الأمور هي التي تسمى معاني أي مقاصد النفس"(٧٠)

ويدلّ على ذلك أيضًا ويؤكده قول ابن سنان: " إن كلام الإنسان ترجمان عقله، ومعيار فهمه، وعنوان حسّه، والدليل على كلّ أمر لولاه لخفي منه، وبحسب ذلك يحتاج إلى فضل التثقيف، واجتماع اللب عند النظم والتأليف"(٧١)

الإحساس النفسي بجمال اللغة

لقد أحس سيبويه إحساسًا فطريًّا بما لديه من سليقة لغوية بالجمال، بل جعله إحدى علل الكشف عن أسرار ومميزات لغتنا الجميلة؛ فيقول في حذف تاء التأنيث من الفعل الذي فاعله مؤنث : "وقال بعض العرب: قال فلانة، وكلما طال الكلام فهو أحسن نحو قولك: حضر القاضي امرأةٌ (برفع امرأة)؛ لأنه إذا طال الكلام كان الحذف أجمل..." (٧٢)

وإن كانت النفس الآدمية تطمح إلى الاستخدام الجمالي في جميع فنون الحياة بما في ذلك اللغة التي يكمن جلّ جمالها النفسي في استخدام اللغة على سبيل المجاز (الاستعارة ـــ الكناية ـــ التشبيه ـــ المجاز المرسل). فلقد فطنت الحاسة الجمالية في نفسية سيبويه إلى ذلك المجاز الموجود عند الإسناد لألفاظ اللغة وسمَّاه " التوسع أو الاتساع" في اللغة(٧٣)، بخلاف الحقيقة أو الأصل اللغوي، وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بـ"المجاز العقلي"(٧٤) في مقابل الأصل اللغوي.

فقد تعرض لذلك سيبويه، ودلّ عليه بأمثلة عديدة(٧٥)، ففي (باب جرى مجرى الفاعل الذي يتعداه فعلُه إلى مفعولين في اللفظ لا في المعنى) بقوله: "على هذا الحد: سرقتُ الليلةَ أهلَ الدار، فتُجرِي الليلةَ على الفعل في سَعَةِ الكلام، كما قال: صِيْدَ عليه يومان، وَوِلدَ له ستون عامًا.. والمعنى إنما هو في الليلة، وصيد عليه في اليومين، غير أنهم أوقعوا الفعل عليه لسعة الكلام.. ومثل ما أُجرِيَ مُجْرَى هذا في سَعةِ الكلام والاستخفاف قوله عزوجل :(بل مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهَارِ) فالليل والنهار لا يَمكُرانِ ولكنَّ المكرَ فيهما"(٧٦)

هذه أحد نماذج القرآن من تحليل سيبويه الذي ارتكز فيه على علم المتكلم بأساليب العرب في كلامها وطريقتها في تركيب خطابها ودواعيها للحذف والإيجاز في أصل بناء الجملة مما سماه العلماء من بعد بسنن العرب في كلامها، ومن ذلك الحذف للإيجاز، وعلم المخاطب بالمعنى،وما يتم به الكلام. وهو تحليل دلالي أفاد منه البلاغيون بعد، فانتهوا إلى أن الأصل في كل معلوم حذفه.(٧٧)

فسيبويه كأي بشر يحمل نفسًا إنسانية ذواقة للغتها، أحست تلك النفس بما في تلك اللغة من طباع جمالية باستعمال المجاز بوصفه معنى مقابلاً للحقيقة. وإننا كبشر نعبر بذلك المجاز عمًّا يختلج في نفوسنا من مشاعر وأحاسيس تجاه الآخرين" ولقد اخترع البدوي المجازات البيانية، والصور الخطابية قبل أن ينشأ الفن، ويُوضعَ البيان، ولقد كان إذا ما ضرَّم النَّوى أنفاسه، وأرمض الهوى نفسه، يخاطب الغُيَّاب ويظنهم يسمعونه، ويكلِّم الأطلال والأموات ويعتقد أهم يفهمونه..." (٧٨)

تعقيب: هكذا نرى أن الجمال الذي تتسم به لغتنا العربية قد أبهر سيبويه وأثر في نفسه:

- تارة بإحساسه الفطري بالجمال والحسن في قول كذا.
- تارة أخرى بالتبرير والتعليل للأحسن والأجمل لغويًّا أو مجازيًّا.

وإن كان سيبويه أحس إحساسًا فطريًّا بما لديه من سليقة لغوية بالجمال اللغوي؛ فلا عجب في ذلك من إنسان رُوِيَ عنه أنه جميل في ذاته وشخصه فانعكس ذلك على رؤيته وتذوقه للغة؛ ففي شذرات الذهب:" قال ابن عائشة كنا نجلس مع سيبويه في المسجد، وكان جميلاً نظيفًا قد تعلق من كل علم بسبب مع حداثة سنه ..."(٧٩)

الإحساس بالأداء الصوتي الذي يتسق مع غرض النفس

تجنح النفس الإنسانية إلى أداء صوتي يتسق مع حالة المخاطب.

ولقد فطنت حاسة النفس الصوتية لدى سيبويه إلى ذلك في باب النداء حيث قال في (باب الحروف التي يُنبَّه بها المدعو)"فأما الاسم غير المندوب فينبَّه بخمسة أشياء: بيَا ،وأيَا، وهَيَا، وأَي، وبالألف، نحو قولك: أَحَارِ بن عمروٍ، إلا أن الأربعة غير الألف قد يستعملوها إذا أرادوا أن يمدُّوا أصواهم للشيء المتراخي عنهم، أو الإنسان المُعرِض عنهم، الذي يرون أنه لا يُقبِل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل، وقد يستعملون هذه التي للمد في موضع الألف، ولا يستعملون الألف في هذه المواضع التي يمدُّون فيها، وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة غَيْر(وَا). إذا كان صاحبك قريبًا منك مُقبِلاً عليك، توكيدًا، وإن شئت حذفتَهن كُلَّهن استغناء كقولك: حارِ بن كعبٍ، وذلك أنه جعلهم بمترلة مَنْ هو مُقبِل عليه بحضرته يخاطبه... وأما المستغاث به (فَيَا) لازمةٌ له؛ لأنه يجتهد، فكذلك المُتعجَّبُ منه، وذلك: يالَلناسِ ويالَلماء، وإنما اجتهد لأن المستغَاث عندهم متراخٍ أو غافل، والتعجب كذلك، والنُّدبة يلزمها(يا) و(وا)، لأنهم يختلطون ويدعون ما قد فات وبَعُدَ عنهم، ومع ذلك أن الندُّبة كأنهم يترنَّمون فيها؛ فمن ثَمَّ ألزموها المدَّ وألحقوا آخر الاسم المدَّ مبالغةً في الترنُّم"(٨٠)

بداية نلفت الانتباه إلى أنه واضح من عنوان الباب أن سيبويه يحلل بتذوق تركيبًا صوتيًّا بأداء لغوي منطوق محسوس؛ فقد خصّ سيبويه كل حرف نداء بمعنى خاص يتفرد به وإن كان يشترك مع بقية حروف النداء في المعنى العام. وهذا مساير لنفس الإنسان التي تنحو نحو التحديد والإبانة. فإن كانت أحرف النداء تجتمع حول معنى عام وهوتنبيه المدعو -على حد التعبير النفسي لسيبويه "الحروف التي ينبه بها المدعو"- إلا أنها تتخصص فيما بينها حسب حالة المخاطب النفسية، عبر مراعاة المسافة التي تفصل المُنادِي عن المُنادَى عليه. فيقول "...إلا أن الأربعة غير الألف قد يستعملوها إذا أرادوا أن يمدُّوا أصواهم للشيء المتراخي عنهم، أو الإنسان المُعرِض عنهم، الذي يرون أنه لا يُقبِل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل" فحروف

النداء: (يا،أيا،هيا،أي،الهمزة) يتبين استخدامها في ضوء سياق مشافه مشاهد يتطلب رفع الصوت ومده إحساسًا ببعد المنادى أو تغافله. فسيبويه بذلك التحليل يؤكد على الدور المهم للظروف والملابسات الخاصة التي تحيط بعملية الكلام.أي السياق الاجتماعي أو ما نسميه بالحال أو المقام. أضف إلى ذلك التأكيد أيضًا حالة المتكلم النفسية؛ فأساليب الاستغاثة، والنداء التعجبي، والندبة تنادى بأدوات نداء داله على البعد لتكون مؤدية لمعناه المراد مع حالة المتكلم النفسية التي تتطلب هنا زيادة في الصوت ومطلاً في المَدّ مبالغة في الترنم، خاصة في الوقف بالإشباع بمعنى الإطالة التي تؤدي أغراضًا نفسية؛ فمن ذلك ماذكره سيبويه تحت (باب وجوه القوافي في الإنشاد): "وأمَّا الذين ترنَّموا فإنهم يلحقون الألف والواو والياء ما ينوَّن و مالا ينوَّن لأَنَّهم أرادوا مَدَّ الصوت، وذلك كقوله:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِي

وقال في النصب ليزيد بن الطثرية :

فبتنا تحيد الوحوش عنا كأننا قتيلان لم يَعْلَمْ لنا الناسُ مصرَعا

وقال في الرفع لجرير:

متى كان الخيام بذي طلوعٍ سُقِيتِ الغيثَ أيتها الخيامُ

وإنما ألحقوا هذه المَدَّة في حرف الروي؛ لأن الشعر وضع للغناء والترنم به فألحقوا كل حرفٍ الذي حركته منه فإذا أنشدوا أو ترنموا فعلى ثلاثة أوجه، أما أهل الحجاز فيدعون هذه القوافى مانون منها وما لم ينوّن على حالها في الترنُّم ليفرقوا بينها وبين الكلام الذي يوضع للغناء وأما ناسٌ كثير من بنى تميم فإنهم يبدلون مكان المدة النون فيما ينوَّن ومالم ينوَّن لما لم يريدوا الترنم أبدلوا مكان المدة نونًا ولفظوا بتمام البناء"(٨١)

وإن كان سيبويه هنا تحدث عن الوقف بالإشباع فقد تحدث أيضًا عن أنواع أخرى من الوقفات– على أنها أحد عناصر الأداء الصوتي المعبر عن أغراض النفس– تلك الوقفات تؤدي دورًا مهمًّا في إظهار أغراض المتكلم؛ فعن طريقها يستطيع المتكلم أن

يؤكد فكرة ما، وأن ينقل هذا التأكيد للمستمع، وأن يخطط للفكرة التالية لهـا؛ فعلى سبيل المثال يتحدث سيبويه عن الوقف بالتضعيف المتمثل في أن حرف الإعـراب قـد يلحقه التثقيل عند الوقف؛ نحو هذا خالدّ، وهو يجعلّ بقوله: "وأما الذين ضاعفوا فهـم أشد توكيدًا، أرادوا أن يجيئوا بحرف لا يكون الذي بعده إلا متحركًـا لأنـه لا يلتقـي ساكنان، فهؤلاء أشد مبالغة.. (حيث يضغطون على المقطع الأخير فيقولون) هذا خالدّ، وهو يجعلّ،وهذا فرجّ"[(٨٢)]

لقد أشار سيبويه إلى ما نسميه بالنبر الذي جاء للدلالة على أغـراض نفسـية للمتكلم كالتأكيد أو المبالغة وحينئذٍ يضغط المتكلم في نطقه بدرجة أقوى علـى أحـد المقاطع بما يعني درجة أكبر من الانفعال وحالة عالية من الإلحاح النفسي المتمثل في تعبير سيبويه(فهم أشد توكيدًا)، و(هؤلاء أشد مبالغة)

وإن كان سيبويه هنا قد أشار إلى دلالة النبر، فكـذلك أشـار إلى أهميـة الأداء الصوتي في التعبير عن النفس بالتنغيم الذي أحس سيبويه بأهميته كأداء صوتي متسق مع أغراض النفس. تلك الإشارة من سيبويه أوضحها ابن جني بقوله "وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه – سيبويه- صاحب الكتاب من قولهم: سـير عليه ليـــل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دلّ مـن الحال على موضعها، وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطـريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قولة اللفظ بـ(الـله) هذه الكلمة، وتتمكن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بهـا وعليها، أي رجلاً فاضلاً، أو شجاعًا كريمًا، أو نحو ذلك، وكذلك تقـول: سـألناه فوجدناه إنسانًا! وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولـك: إنسان سمحًا أو جوادًا أو نحو ذلك، وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق، قلت: سألناه، وكان إنسانًا! وتزوي وجهك وتقطبه فيغني ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًا..."[(٨٣)]

ونجد هنا في إشارة سيبويه عن ظاهرة التنغيم في عبارة "سير عليه ليل" التي أوضحها ابن جني أن هناك إحساسًا تراثيًّا بأثر الأداء الصوتي في تحويل المعنى النحوي بما يتسق مع أغراض النفس. حيث دلَّ التنغيم هنا على الصفة المحذوفة، أيضًا استفاض العلماء في دلالات وأغراض نفسية أخرى للتنغيم كـ"تحديد الإثبات والنفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام"(٨٤)، و"للدلالة على النفي أو التهكم أو الاستفهام أو غير ذلك، وهو يفرق بين الجملة الخبرية والإنشائية:تعجب،استفهام،نداء"(٨٥)

وإن كان خلف سيبويه كابن جني قد تلقفوا بالتوضيح إشارة سيبويه عن ظاهرة التنغيم في قوله: "سير عليه ليل"، فكذلك تلقفوا بالتوضيح إشارة سيبويه عن مساوقة الصيغة للحدث الذي تدل عليه؛ فعند نشأة اللغة على ألسنة أبنائها الأوائل الذين وضعوها واصطلحوا عليها راعوا في ذلك الأبعاد النفسية على نحو ما أوضحه سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو:النقزان والغليان والغثيان، فقابلوا توالي حركات المثال توالي حركات الأفعال.

الإحساس بالغرض النفسي للشاهد اللغوي

سيبويه أثناء شرحه لمسائله اللغوية يدلل عليها بشواهد من القرآن أوالنثر أو الشعر، مستخدمًا أحيانًا التحليل النفسي لتلك الشواهد بما يخدم أحكامه اللغوية. وترى ذلك جليًّا في جميع جوانب اللغة سواء الصرفية أو الصوتية أو النحوية الآتية:

ففي الجانب الصرفي لذلك ما ارتآه سيبويه في (باب جمع التكسير الواحد للجمع) قائلاً: قد يجمعون بالتاء (جمع المؤنث السالم) وهم يريدون الكثير، وقال الشاعر: وهو حسان بن ثابت:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى   وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا

فلم يُرِدْ أدنى العدد(٨٦)

وفي الجانب الصوتى لذلك رأيه في قول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِي

وإنما ألحقوا هذه المَدَّة في حرف الروي؛ لأن الشعر وضع للغناء والترنم(٨٧)

وفي الجانب النحوي لذلك تعليقه على قول امرئ القيس:

فَلَو أَن ما أَسْعَى لأَدْنَى مَعِيشَةٍ   كَفَانِي، وَلَمْ أَطْلُبْ ،قَلِيلٌ مِنَ المال

فيقول سيبويه:فإنما رفع لأنه لم يجعل القليل مطلوبًا وإنما كان المطلوب عنده المُلْك، وجعل القليل كافيًا، ولو لم يُرِد ذلك ونصب فَسَد المعنى" (٨٨)

ولاشك أن إحساس سيبويه بالحالة التي عليها المتكلم أدى إلى التوجيه النحوي الملائم.

وهكذا رأينا سيبويه مُحَللاً نفسيًّا في شواهد عدة؛ لذلك قال الجرمي" وكتاب سيبوبه يُتعلم منه النظر والتفتيش" والمراد بذلك أن سيبويه، وإن تكلم في النحو فقد نَبَّه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، و لم يقتصر على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب،ونحوذلك بل هو يبين في كل باب مايليق به حتى أنه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني، ومن هنالك كان الجرمي على ما قال وهو كلام يروى عنه في صدر كتاب سيبويه من غير إنكار"(٨٩)

الإحساس النفسي بغرض الكلام الظاهري

النفس الإنسانية تميل أحيانًا إلى التعبير عن نفسها بأسلوب لغوي ذي شكل ظاهر غير مقصود، بيد أن المقصود أغراض باطنية نفسية تستفاد من السياق وقرائن الحال.

وأبرز ما يبين الخروج على مقتضى الظاهر في لغتنا هو:

١ــ الإنشاء الذي يُعبر عنه بالأسلوب الخبري الذي يحتمل الصدق أو الكذب. فالجملة الخبرية قد تأتي ويراد بها معنى الجملة الإنشائية(الدعاء، أو التحسر، أو التوبيخ...) وهذه المعاني تستفاد من السياق وقرائن الحال؛ فمن ذلك ما أشار إليه سيبويه في (باب الأمر والنهي) قائلاً: " ... وتقول: زيدًا قَطَعَ اللهُ يدَه، وزيدًا أمـرَّ الله عليه العيشَ، وقال أبوالأسود الدؤلي:

أميرانِ كَانَا آخَيَانِي كِلاهُما   فكلاً جزاه اللهُ عَني بِما فَعَل "(٩٠)

فسيبويه بيَّن أن الغرض والمعنى المراد هو الدعاء له أو عليه وليس المقصود معنى الخبر الأصلي.

٢ـــ الخبر الذي يُعبَر عنه بالأسلوب الإنشائي. سواء كان الإنشاء طلبيًّا يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب بالاستفهام والنداء والأمر والنهي والتمني، أو غير طلبي لا يستدعي مطلوبًا كالتعجب والمدح والذم والقسم وأفعال الرجاء...

فسيبويه كثيرًا ما أحس بالغرض النفسي لهذه الأساليب الإنشائية فمن ذلك أسلوب الاستفهام الذي قد يأتي لأغراض نفسية كـــ(التقرير[٩١]، والإنكار[٩٢]، والتنبيه[٩٣]، والتسوية[٩٤]، والسخرية[٩٥]...)

أتحدث منها ها هنا عن مثال وهوالاستفهام للتوبيخ الذي ذكره سيبويه في التهكم من المنافق الذي يتلون في(باب ما جرى من الأسماء التي لم تُؤخَذْ من الفعل مجرى الأسماء التي أُخذت من الفعل) "وذلك قولُك: أتميميًّا مرَّةً وقَيسيًّا أخرى؟ وإنما هذا أنك رأيتَ رجلاً في حال تَلوُّن أخرى، فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلوُّن وتنقُّل، وليس يسأله مسترشدًا عن أمر هو جاهل به ليفهِّمَه أي ويخبر عنه، ولكنه وبَّخه بذلك...ومثل ذلك قول الشاعر:

أَفي السِّلم أعيارًا جَفَاءً وغِلظَةً   وفي الحرْب أشباهَ الإماءِ العَوارِكِ

أي تنقَّلون، وتلوَّنون مرَّةً كذا ومرَّةً كذا وقال:

أَفي الوَلائِم أولادًا لواحِدةٍ   وفي العِيادَةِ أَولادًا لعَلاتِ" [٩٦]

فلقد أدرك سيبويه من خلال السياق والمعرفة بقصد المتكلم أن الاستفهام في "أتميمًّا مرَّةً وقَيسيًّا أخرى؟" ليس المقصود منه سؤال السامع لتحصيل أمر مجهول، ولكن المقصود هو توبيخه لما بدا عليه من هذه الحال على حدِّ تعبير سيبويه"وهو عندك في تلك الحال" والمقصود بالحال هو المقام أو السياق الاجتماعي، وهو ما اتضح في الاستفهام الموجود أيضًا في البيتين.

فليس الغرض فيهما هنا إخبار المخاطب وإعلامه بل السياق الاجتماعي يدل على الحذف والتأنيب.

وبالبحث نجد أن السياق عبر كتاب سيبويه يتحكم في أغراض ودلالات الاستفهام.

وهناك صور أخرى لخروج الكلام على مقتضى الظاهر، تعرض لتلك الصور سيبويه في تضاعيف كتابه منها:

١ــ خروج أداة الشرط" لو" عن معنى الشرط الظاهري إلى معنى التمني ففي (باب الفاء) يذكر سيبويه:"ويقول: ودّ لو تأتيه فتحدِّثَه، والرفع جيد على معنى التمني: ومثله قوله عز وجل(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

٢ــ خروج لفظ المثنى إلى معنى الجمع لغرض نفسي متمثل في التوكيد الذي نحسه في تكرار الشيء مرة بعد مرة، فحنانيك(تحنن أولاً+ تحنن ثانيًا) أي مرة بعد مرة؛ ففي (باب ما يجئ من المصادر مثنى منتصبًا على إضمار الفعل المتروك إظهاره) يذكر سيبويه قائلاً "وذلك قولك: حَنَانَيْكَ،كأنه قال: تَحنُّنًا بعد تحنُّنٍ، كأنه يسترحمه ليرحمه.. ولا يكون هذا مثنى إلا في حال إضافة .. وزعم الخليل رحمه الله أن معنى التثنية أنه أراد تَحنُّنًا بعد تحنُّنٍ، كأنه قال: كلما كنت في رحمة وخير منك فلا ينقطعن، وليَكُنْ موصولاً بآخر من رحمتك .. ومثل ذلك: حَذَارَيْكَ، كأنه قال: ليكن منك حَذَر بعد حذر. كما أنه أراد بقوله لَبَيكَ وسَعْدَيكَ: إجابةً بعد إجابة كأنه قال: كُلما أجبتُكَ في أمر فأنا في الأمر الآخر مجيب، وكأنَّ هذه التَّثنيةَ أشدُّ توكيدًا" (٩٧)

٣ــ خروج لفظ المفرد إلى معنى المثنى والجمع لغرض نفسي قد يكون الاستخفاف والاختصار ففي (باب الصفة المشبهة بالفاعل فيما عملت فيه) يقول "... ويعمل في الجمع كقولهم: هو خيرٌ منك أعمالاً،فإن أضفت فقلت: هذا أوَّلُ رجلٍ، اجتمع فيه لزوم النكرة، وأن يلفظ بواحد وهو يريد الجمع، وذلك لأنه أراد أن يقوم : أول الرجال فحذف استخفافًا واختصارًا، كما قالوا: كلُّ رجل ، يريدون: كُلَّ الرجال، فكما استخفوا بحذف الألف واللام استخفوا بترك بناء الجميع، واستغنوا عن الألف واللام، وعن قولهم : خيرُ الرجالِ، وأوّلُ الرجال"(٩٨)

الإحساس النفسي بحالة المخاطب عند اختيار المصطلح اللغوي

تجنح النفس الإنسانية أثناء اختيارها للمصطلحات اللغوية أن تخضعها لمطابقة المقام والحال- هذا ما أشرنا إليه طوال هذا البحث- بما يتسق مع حالة المخاطب. حيث إن علاقة المتكلم بالسامع قد تفرض نوعًا معينًا من الحديث؛ فحديث التلميذ مع أستاذه يختلف عن حديثه مع الآخرين، و كذلك الأم حين تتحدث كأم عن أطفالها أو عن شئون أطفالها. إن مستوى الحديث يمكن أن يحدد درجة العلاقة الشخصية بين المتكلمين — المستوى الشخصي للعلاقة- أو أنه يمكن أن يؤثر في الدور الذي تلعبه اللغة في الموقف أو المقام؛ فالحديث الذي يدور بين الزوج وزوجته تتخلله عبارات الألفة والمودة وعدم التمسك بالرسميات.[٩٩]

ولقد فطنت حاسة النفس اللغوية لدى سيبويه إلى ذلك في باب الأمر والنهي فيقول: " واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي، وإنما قيل: دعاء، لأنه استُعظم أن يقال: أمر أو نهي، وذلك قولك: اللهم زيدًا فاغفر ذنبه، وزيدًا فأصلح شأنه وعمرًا ليجزه الله خيرًا..."[١٠٠]

فاختياره لمصطلح الدعاء في هذا المقام توحي بإحساسه بالغرض النفسي من الأمر والنهي وهوالدعاء أو الالتماس حينما يتوجه الكلام من الأدنى إلى الأعلى في المكانة.

والمثال السابق الذكر من كتاب سيبويه هو نموذج لكلام البشر العادي عن الذات الإلهية. أما عن النموذج القرآني المتمثل في كلام الله، فنختار أحد الأمثلة القرآنية من كتاب سيبويه التي ذكرها على غرار اختياره للتعبير اللغوي المناسب عند التحدث عن الذات الإلهية؛ فيحلل قوله تعالى (ويل للمطففين، وويل يومئذ للمكذبين) يحلل ذلك تحليلاً رسم به طريقًا لوجوه حمل كلام الله تعالى على مقتضى لغة العرب،ومعرفة أسلوبهم في الخطاب، فالقرآن يخاطب الناس بأساليب العرب في كلامها ومتعارف خطابها، ويؤول المتشابه منه بما يليق بجلال الله وسعة علمه وإحاطته وكمال قدرته ونفاذ إرادته، وتنزهه عن النقص والعجز والجهل.[١٠١] فيقول سيبويه في (باب من النكرة يجري مجرى

ما فيه الألف واللام من المصادر والأسماء)"وأما قوله تعالى جدّه:(ويل يومئذ للمكذبين)، و(ويل للمطففين)، فإنه لا ينبغي أن تقول إنّه دعاء ها هنا، لأن الكلام بذلك قبيح، واللفظ به قبيح، ولكنّ العباد إنما كُلّموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يَعْنون، فكأنه والله أعلم قيل لهم: ويل للمطففين، وويل يومئذ للمكذبين، أي هؤلاء ممَّن وَجبَ هذا القول لهم، لأن هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشَّرِّ والهلكة، فقيل: هؤلاء ممَّن دخل في الشر والهلكة ووجب لهم هذا، ومثل ذلك قوله تعالي: (فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يتذَكَّرُ أوْ يَخْشَي)، فالعلم قد أوتي من وراء ما يكون ولكن اذهبا أنتما في رجائكما وطمعكما ومبلغكما من العلم، وليس لهما أكثر من ذا ما لَمْ يعلما، ومثله: (قَتَلَهُمُ اللهُ)، فإنما أجري هذا على كلام العباد وبه أُنزل القرآن"(١٠٢)

تلك أمثلة تدل على المراعاة النفسية لحالة المخاطب، ووعي سيبويه بالسياق الديني.

التذوق النفسي للمصطلح اللغوي

سيبويه أثناء تسمياته لأحكام لغوية أخضعها لحاسته النفسية في التذوق اللغوي، مثال ذلك حديثه عن أحرف النداء التي أسماها تبعًا للغرض النفسي منها بـ "الحروف التي ينبه بها المدعو" وبأنها قد تحذف دلالة على القرب ويأتي المنادى بدون أداة نداء على تصور تقدير أداة نداء(١٠٣)؛ فذكر تحت(باب الحروف التي ينبه بها المدعو)"... إذا كان صاحبك قريبًا منك مُقبلاً عليك، توكيدًا، وإن شئت حذفتَهن كُلَّهن -أدوات النداء- استغناء كقولك: حارِ بن كعبٍ، وذلك أنه جعلهم بمترلة مَنْ هو مُقبِل عليه بحضرته يخاطبه... "(١٠٤)

وإذا كان سيبويه يستسيغ حذف أداة النداء إذا تطلب الغرض النفسي ذلك، فإنه يعترض على حذفها لتنافي الحذف مع غرضها المنوط بها في مواطن نفسية أخرى كالاستغاثة، أوالنداء التعجبي، أو الندبة. حيث يأتي النداء في ذلك ويُراد به خلاف معناه الأصلي.

فأدوات النداء قد تدخل على ما يسمى بالمنادى غير أن الغرض النفسي -بخلاف معنى النداء- يرمي إلى معانٍ أخرى كالاختصاص الذي يفيد بدوره الافتخار والتعظيم أو التحقير والتصغير. فمن ذلك حديثه: (هذا باب ما جرى على حرف النداء وصفًا

له، وليس بمنادى ينبِّهُه غيره، ولكنه اختُصَّ كما أن المنادى مُختصٌّ من بين أمته، لأمرك ونهيك أو خبرك... وذلك قولك: أما أنا فأفعل كذا وكذا أيُّها الرجل... واللهم اغفر لنا أيَّتُها العصابة، وأردت أن تختص ولا تبهم حين قلت: أيتها العصابة وأيها الرجل، أراد أن يؤكد؛ لأنه قد اختص حين قال: أنا، ولكنه أكَّدَ كما تقول للذي هو مقبل عليه بوجهه مستمع منصت لك، كذا كان الأمر ياأبا فلان توكيدًا ... وذلك نحو قوله، هو عمرو بن الأهتم

إنا بني مِنْقَرٍ قومٌ ذَوُو حَسَبٍ فينا سَراةُ بنى سَعْدٍ ونَادِيهَا

وقال الفرزدق :

أَلَم تَرَ أَنَّا بني دَارِمٍ زُرارةُ مِنَّا أبو مَعْبَدِ

فإنما اختص الاسم هنا؛ ليُعرَف بما حُمِل على الكلام الأول، وفيه معنى الافتخار... وإذا صغَّرتَ الأمر فهو بمنزلة تعظيم الأمر في هذا الباب، وذلك قولك: إنَّا معشَر الصعاليك لا قوة بنا على المُرُوَّةِ"[١٠٥]

فسيبويه هنا تذوق الصياغة الشكلية للنداء على أنها اختصاص؛ فأطلق مصطلح الاختصاص بناء على التذوق النفسى، لاعلى أساس الشكل اللغوي[١٠٦]

وعلى غرار ذلك تذوقه للحذف اللغوي على أنه إضمار نفسي يرمي لـ "التخفيف أو الاتساع أو الإيجاز" فآثر مصطلح الإضمار بماله من اتصال نفسي في مواطن كثيرة بالكتاب[١٠٧]الإضمار للتخفيف ـ وللاتساع ـ وللإيجاز...

وعلى غرار ذلك تذوقه لما نسميه حديثًا بالمجاز على أنه "اتساع" كغرض نفسي يرمي إليه المجاز فآثر تسمية المجاز بلفظة "الاتساع، والسعة" لدلالتها النفسية.[١٠٨]

الخاتمة

أمران اثنان صفوة ما انتهى إليه هذا البحث

أولهما : بلورة البحث حول محاور عامة.

ثانيهما : نتائج البحث.

أما بخصوص أولهما فقد حاول الباحث الربط بين علم النفس وكتاب سيبويه باستقراء الكتاب، واستخراج ما له علاقة بعلم النفس؛ فتكونت لديَّ أشتات لغوية

نفسية بالكتاب، ثم أخذت تتبلور على المحاور اللغوية النفسية لـــ(المُتكلِم، والمُتلقِـــي، والمُحَلل)على النحو التالي:

أولاً المُتكلِم:

لاحظ الباحث من خلال استقراء ما جاء بالكتاب أن ابن تلك اللغة أو المبدع له ميول نفسية لغوية تتجه إلى:الإضمار تارة أو إلى التوضيح تارة أخرى، والفهم والإفهام،والتآم النظم. فلا يخفى على الباحث البصير في كل ذلك عناية التقعيد اللغوي عند أئمة العربية بنفسية المتكلم؛ كالحديث عن أدوات نداء للقريب، وأدوات نداء للبعيد. وقد ترى نفسية المتكلم إنزال القريب مترلة البعيد؛ فينادي على القريب بأحد الحروف الموضوعة للبعيد إحساسًا من المتكلم بأن المنادى عظيم الشأن رفيع المرتبة، فاستخدام أداة نداء للبعيد هنا، الغرض منها عند المتكلم، بيان أن المنادى صاربعيدًا، هنا البعد ليس مكانيًّا، ولكنه نفسي، وقد ترى نفسية المتكلم إنزال البعيد مترلة القريب فينادى على البعيد بأحد الحروف الموضوعة للقريب إحساسًا من المتكلم بأن المنادى قريب من نفس المتكلم حتى صار كالحاضر معه لايغيب عن القلب وكأنه ماثل أمام العين لأنه حاضر في ذهنه.

وفي درس النداء أيضًا اعتنى سيبويه بنفسية المتكلم عند حديثه عن المنادى النكرة، فهل هي نكرة مقصودة تبنى على الضم كالعلم المفرد أو هي نكرة غير مقصودة فتنصب، والذي يحدد كونها مقصودة أو غير مقصودة نفسية المتكلم.

ومن عناية سيبويه بنفسية المتكلم الحديث عن أن المتكلم قد ينطق بأدوات النداء ولا يقصد النداء بل التمني. وهذا يكشف الحالة النفسية للمتكلم الذي قد يطلب شيئًا مستحيلاً باستخدام أدوات النداء، وهو لون من ألوان البلاغة التي تكشف ما وراء الدلالة الظاهرة للنص، كحديثه عن التمني بأدوات غير لعل وهي (لو- هل- أدوات النداء) هذه الأدوات تقوم مقام ليت وتبقى وسيلة للتعبيرعن نفسية المتكلم. تلك النفسية التي اعتنى بها سيبويه لدى المتكلم والمتلقي ويتضح ذلك من دراسة الاستفهام في كتابه؛

حيث يحلل دلالات الاستفهام رابطًا إياها بالغرض الكامن في هذا الأسلوب لدى المتكلم، ويتوقف فهم دلالات الاستفهام على تحليل السياق ومعرفة نفسية المتكلم و دلالته المجازية؛ كالإنكار والتقريع، والتهديد، والتحسر، والتوجع، والتمني والتقرير والتعجب والتعظيم والحزن وغيرها من المقاصد النفسية.

كذلك اعتنى سيبويه بنفسية المتكلم في الحديث عن الأداء الصوتي الذى يتسق مع غرض النفس كالوقف على الفتحة بالألف وعلى الضمة بالواو وعلى الكسرة بالياء أي الوقف بالإشباع للترنم. وأنواع أخرى من الوقفات التي تؤدي دورًا في إظهار أغراض المتكلم. وإشارته إلى النبر والتنغيم لتحويل المعنى النحوي بما يتسق مع أغراض نفس المتكلم؛ حيث إن الأداء الصوتي ينقل الحالة النفسية للمتكلم إلى السامع، كما يتبين لنا تأثير الأداء الصوتي على الدلالات والمعاني نحو إشارة سيبويه إلى الأداء التنغيمى في قول" سير عليه ليل" فتحديد المعنى هنا يتوقف على الطريقة الصوتية التي تؤدى بها. لتعكس لنا عواطف المتكلم وانفعالاته وحالته النفسية المصاحبة للكلام.

وإذا كانت عملية الكلام تنبني في أساسها على التعبير عن غرض المتكلم فإن نجاحها يتوقف على فهم تلك الأغراض من قبل المتلقي.

ثانيًا المتلقي:

لاحظ الباحث من خلال استقراء ما جاء بالكتاب أن صاحب الكتاب اعتنى بإحساس المتلقي للغة مثل: الإحساس النفسي بجمال اللغة المجازية،والإحساس بالغرض النفسي للشاهد اللغوي، والإحساس النفسي بغرض الكلام الظاهري، والإحساس النفسي بحالة المخاطب عند اختيار المصطلح اللغوي،والتذوق النفسي للمصطلح اللغوي.فلا يخفى على الباحث البصير في كل ذلك عناية سيبويه باستعمال ألفاظ ومصطلحات خاصة بأثر الكلام في نفس المُتَلقي حسبما ذكرنا عددًا من المصطلحات كالتوبيخ، التوكيد، التخفيف....

وهناك لدى سيبويه أثناء الحديث عن الخروج على مقتضى الظاهر العديد من المصطلحات الأخرى الخاصة بنفسية المتلقي تحتاج إلى تأنٍّ وتروٍّ في فهمه لا سيما عند من لا يألف لغة سيبويه.

فقد كان يجنح أحيانًا إلى استعمال مصطلحات هي مظهر من مظاهر التلقي أو نتيجة من نتائجه كاستعماله مصطلح الاتساع على المجاز، على حين أن الاتساع أحد مظاهر المجاز.... وعمومًا يكتشف قارئ البلاغة النفسية عند سيبويه أن الرجل قد أولى عناية بأثر الكلام أو القول في المتلقى.

ومن هنا ألفينا في كتابه ألفاظًا تنسب لحقل التلقي مثل:

- الحروف التي ينبه بها المدعو ــ الترنم ـــ "التعجب والمدح والذم والقسم والرجاء" في حديثنا عن الخبر الذي يعبر عنه بالإنشاء.

- والدعاء أو الالتماس أو الأمر أو النهي حسب مكانة المتلقي من المتكلم، فكل هذه الألفاظ لا تكون إلا أفعالاً للنفس أو أوصافًا لها أو ردودًا منها عند التلقي.

ثالثًا المُحَلِّل:

وإذا كانت عملية الكلام تنبني في أساسها على التعبير عن غرض المُتَكلم وفهم المُتَلقي فإن حجر الزاوية في تحليل حالة السامع وفهم قصد المتلقي يرتكز على المُحَلل للغة تحليلاً داخليًّا لأصواتها وصرفها وتراكيبها بجوار تحليلها تحليلاً خارجيًّا بمعرفة الحال والسياق والمقام بين المتكلم والمخاطب؛ فبرز هنا دور المُحَلِّل للملفوظ على قرائن السياق أو ما يسمى بسياق الحال، وارتكز عليه في فهم الحدث اللغوي بين المتكلم والمخاطب حيث لاحظ الباحث من خلال استقراء ما جاء بالكتاب أن صاحب الكتاب(إمام النحاة) اعتنى بالتأويل أوبالتحليل النفسي المرتكز على تعليلات بلاغية نفسية مثل: أمن اللبس، وطلب الخفة، والعلل البلاغية النفسية من التقديم والتأخير المتمثلة في (الشك بعد اليقين – العناية والاهتمام – التنبيه)، والعلل البلاغية النفسية من الأداء الصوتي المتمثلة في(العلة من النداء "التنبيه"- العلة من الإشباع في القوافي "الترنم"- العلة من

الوقف "الإحساس بالمعنى اللغوي" – العلة من النبر والتنغيم "الإحساس بالمعنى النحوي". فلا يخفى على الباحث البصير لعلل سيبويه أن بعضًا منها يتعلق بالتحليل البلاغي؛ فقد قال الأستاذ على النجدي عن التعليل في الكتاب"... كان يلتمس علله من حُكْم العَدَل، ومراعاة الأصل، ودفع اللبس ومراد المتكلم وحال النحاة"(١٠٩)

إذن نستطيع أن نضيف إلى شخصية سيبويه النحوي إضافة أخرى وهي شخصية سيبويه النفسي التي جعلت كتابه ليس حكرًا على التقعيد اللغوي، وإنما تخلص أحيانًا من إطار الدرس النحوي لينطلق حرًّا في آفاق النفس البشرية، فأثرى ذلك الكتاب برؤى النقد النفسية المتشعبة؛ تُركت منثورة بين تضاعيف كتابه، رؤية هنا، ولمحة هناك، ونظرة هنالك تحتاج إلى جمع شتاتها المتناثرة لتنظم في عقد واحد لعلم اللغة النفسي خاصة قضايا البلاغة والنقد التي ألقى بذورها النفسية إمام النحاة كتأويلاته؛ فالتأويل عند المُحَلِّل ملكة ذهنية وقادة ناتج عن وعي المُحَلِّل النحوي بالمفارف التي تباعد بين الأصول المتفق عليها والخارج على الأصول نفسها.

إذًا التأويل عند سيبويه أداة تحليليه يلجأ إليها للتوفيق بين القاعدة والمثال "وأكثر سيبويه من تحليله للعبارات حتى تتجه مع ما يراه لألفاظها من إعراب"(١١٠)، ولقد أصبح التأويل عند سيبويه وغيره من نحاة البصرة ظاهرة نحوية؛ولقد كان أسلوب نحاة البصرة في التأويل هو السمة السائدة الشائعة في كتب النحو حتى الآن؛ لأنها حلت كثيرًا من المشاكل التي لا تُحَل إلا بالتأويل أو ما نسميه تارة بالتخريج أو التقدير أو التوجيه أو الحمل، وهى كلمة شائعة في كتاب سيبويه.

على أن أسباب نشأة التأويل أو التحليل النفسي عند سيبويه هي البيئة الفكرية العقائدية التي قعد فيها للنحو، فالبيئة العقائدية تتمثل في أن النحو نشأ في الأساس لخدمة القرآن. ذلك الكتاب الشريف الذي بُدِئ بتفسيره وتأويله قبل نشأة علم النحو وأثناء التقعيد اللغوي، فتأثر أوائل النحاة بالتأويلات القرآنية التي تستند على "القصد عند المتكلم " كما هو عند الأصوليين في استنباطهم الأحكام من الكتاب والسنة، فسيبويه- كما يذكر الشاطبي- "وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد

العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، و لم يقتصر على بيان أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو مبين في كل باب ما يليق به حتى إنه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني"(١١١)

أضف إلى ذلك أن سيبويه وأوائل النحاة تأثروا بالفرق الكلامية العقائدية آنذاك خاصة المعتزلة الذين كانت مذاهبهم تشيع التأويل.

إذًا كثرة التأويل عند سيبويه تدل على جملة أمور في تحليل شخصيته منها:

– نزعته الدينية العقائدية التي تتضح من كثرة استشهاده بالآيات القرآنية التي تعتمد على التأويل في تفسيراتها؛ فألجأت سيبويه إلى تنمية التأويل النحوي في كتابه بتأثير من التأويلات القرآنية أو بتأثير من الفِرَق الكَلامِيَّة العقائدية.

– ثقافته التي تتضح من تعرضه للقراءات ولهجات قبائل العرب وأشعارهم وأمثالهم... إلخ من معارف، خاصةً الجو الفكري السائد في عصره من معارف عقائدية ودينية وفلسفية كتأثره بالفرق الكلامية العقائدية التي ألجأته إلى التأويل التي من مظاهره قضية العامل، حيث قدَّر أن كل معمول لابد له من عامل؛ بسبب التداخل الفكري والمعرفي في ثقافة سيبويه.

– عقليته الألمعية التي تتضح من تعليلاته وقياسه وتفريعاته واستنباطاته...إلخ من أمور تتصدرها تأويلاته التي تصدر عن عقلية متوهجة تعتمد على التصورات الذهنية في توجيه النص وتخريجه؛ فلا عجب في ذلك من رجل من أهل فارس الذين اشتهروا بالتفوق الذهني والعلمي حتى قال عنهم – ص –: "لو تعلق العلم بأكناف الثُّرَيَّا لنَالَه رجالٌ من فارس"

نتابع الحديث عن تحليل شخصية سيبويه في الأمور التالية:

– أمانته التي تتمثل في إسناد الأفكار لأصحابها وتوثيقه للمعلومات بأنها منقولة عن أستاذه الخليل أويونس أو ....وكذلك ارتباطه الروحي بأساتذته وأدبه الجم معهم، خاصة الخليل الذي كثيرًا مايذكره في ثنايا الكتاب بعبارات الإجلال نحو: رأى شيخنا، وسألتُ شيخنا...(يعني الخليل)

- همته العالية المتمثلة في إلحاحه على التعلم الذي يتمثل في قوله: وسألت الخليل...، وسألت يونس... وسمعت من الأعراب (الذين رحل إليهم لسماعهم)

- إحساسه المُرْهَف الذي يتضح لنا من موته في شبابه حزنًا وكمدًا على تخطئته ظلمًا في المسألة الزنبورية عند مناظرته للكسائي.

- إحساسه بالعظمة الذي يَتَبَيَّن لنا في استخدامه الكثير لضمير المتكلم(سمعتُ- رأيتُ- قلتُ - سألتُ...)

ومما يؤكد إحساسه بالعظمة ما رُوِيَ عنه أنه أَصَرَّ على مناظرة الكسائي، رغم نصح الآخرين له بعدم مناظرته، لكنه سعى عند الأمراء والوزراء للمناظرة التي حَسِبَ أنها تظهر أفضليته على الكسائي وغيره من نحاة أهل الكوفة العرب الذين سادت بينهم حركة الشعوبية التي تنتقص من الجنس غير العربي كالفرس الذين ينتمي إليهم سيبويه.

- حدته في الطباع التي تتبيَّن لنا في استخدامه الكثير للفعل ضرب ومرادفاته ومشتقاته في الكثير من أمثاله بالكتاب. وربما لا يعبر ذلك عن الحدة في طباع سيبويه نفسه، بل الحدة في طباع الأعراب الذين أخذ سيبويه عنهم وسمع منهم.

- أعجميته التي تتبين لنا أحيانًا في لغته الغامضه، وأحيانًا أخرى في إحساسه البغيض للعجمة والإبهام؛ فكان يركز على ذكر (التخفيف وأمن اللبس والإفهام)

- جماله الشخصي وحسنه الذاتي الذي يتبين لنا في حديثه عن:(الجمال، والحسن، والأجمل، والأحسن)

أما بخصوص ثانيهما(نتائج البحث) فقد حاول الباحث في هذا البحث جمع آراء سيبويه المتعلقة بالجانب اللغوي النفسي بإشارة الباحث لذلك في حاشية متن كل مسألة يعرض لها؛ حتى يتم وضع سيبويه موضعه الصحيح في إطار حقل البلاغة النفسية بعد أن طبقت شهرته الآفاق في عداد اللغويين.. وقد سلك الباحث لهذه الغاية سُبلاً متعددة توصّل في النهاية إلى أن لسيبويه مواقف وآراء كثيرة في البلاغة النفسية كفيلة بأن تسلكه في عدادهم؛ بما له من آراء تُعتبر بذورًا أو أصولاً نفسية بُني عليها صرح هذا العلم؛ بما يؤكد على أهمية تكامل العلوم الإنسانية. وقد سرد الباحث آراء سيبويه

التي تُبيِّن لنا أنه تخطى حدود منهجه النحوي الذي غايته التقعيد للغة وضبط القوانين التي تكفل سلامة اللغة من الخطل والإلباس إلى منهج آخر نفسي تجاوز فيه حدود النحو بمحاولة استشراف الأغراض النفسية والعلل التي تلجئ المتكلم إلى تفضيل سلوك لغوي ما.

وهاكم سرد الباحث لآراء سيبويه في ذلك التي يمكن عدها نتائج:

١)الزيادة أو الحذف تكمن بهما قيم نفسية بلاغية، مرتبطة بحال المتلقي وطبيعة المقال وإلا كان قبيحًا.

٢)في تناوله للتقديم والتأخير تخطى حدود المعالجة النحوية من حيث الوجوب والجواز إلى استشراف أغراضه النفسية الجمالية.

٣)هذا البحث أعطانا فكرة عن فطنة سيبويه وحسه المرهف تجاه الغرض النفسي المتعلق بالتخفيف، وأمن اللبس، والفهم (من السامع) والإفهام (من القائل).فسيبويه دائمًا يؤكد على ارتباط الحكم الإعرابي بمقاصد النفس بأمثلة كثيرة.

٤)أحس سيبويه بالأثر النفسي الذي يحدثه حسن الكلام في نفوس متلقيه عندما يكون الكلام متسقًا مع قواعد اللغة وهو ما اصطلح عليه فيما بعد بنظم الكلام، غير أن سيبويه عبر عن ذلك في أكثر من موطن بالتأليف (الحسن أو القبيح).أي أن الكلام مرتبط بالنفس وارتبطت معه أحكامه وقواعده.

٥)فطنت الحاسة الجمالية في نفسية سيبويه إلى ذلك المجاز الموجود عند الإسناد لألفاظ اللغة وسمَّاه " التوسع أو الاتساع" في اللغة.

٦) فطنت حاسة النفس الصوتية لدى سيبويه إلى أداء صوتي يتسق مع حالة المخاطب؛ في مثل "باب النداء".

٧) فطنت حاسة النفس اللغوية لدى سيبويه أثناء اختيارها للمصطلحات اللغوية أن تخضعها لمطابقة المقام والحال؛ كاختياره لمصطلح "الدعاء" بدلاً من "الأمر والنهي" حينما يتوجه الكلام من الأدنى إلى الأعلى في المكانة.

المصادر والمراجع

* الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس–الطبعة الخامسة–مكتبة الأنجلو المصرية–١٩٧٩م

*الأصول: دراسة ايستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب للدكتور تمام حسان– الهيئة المصرية العمة للكتاب– القاهرة– ١٩٨٢م

*بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة– تح عبد المتعال الصعيدي للخطيب القزويني– القاهرة– ط١٧– مكتبة الآداب– ٢٠٠٥م

*البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني– د/تمام حسان– مكتبة الأسرة– القاهرة– ٢٠٠٣م

*تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها– أحمد مصطفى المراغي– ط١– نشر مصطفى الحلبي– ١٩٥٠م

*الخصائص لابن جني،تح محمد علي النجار،عالم الكتب،بيروت

*دفاع عن البلاغة للزيات– ط٢ – الاستقلال

*دلائل الإعجاز – أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني–تح محمد رضوان الداية وآخر– ط١– دار قتيبة – دمشق–١٩٨٣م

*سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي– شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي– مكتبة ومطبعة محمد على صبيح– القاهرة– ١٣٨٩هـ– ١٩٦٩م

*سيبويه إمام النحاة، على النجدي ناصف، ط دار الكتب

*شذرات الذهب لابن العماد، ط١،مكتبة القدسي،القاهرة،١٣٥٠هـ

*الشفاء لابن سينا، تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور– تحقيق محمود الخضيري– الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر–١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م

*الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها– أحمد بن فارس – حققه وقدم له مصطفى الشويمي– مؤسسةأ/بدران– بيروت ١٩٦٤م

*الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي– القاهرة

*عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني- د/البدراوي زهران - الطبعة الثالثة ١٩٨٦م ـــ دار المعارف بالقاهرة
* عالم المعرفة (سيكولوجيّة اللغة والمرض العقلي) - د. جمعة سيّد يوسف-رقم ١٤٥- الكويت-يناير ١٩٩٠م
*العلل النحوية لمبروك عطية ط١- ١٩٩٥م
*العوامل النفسية وأثرها في التطور اللغوي،د/إسماعيل أبو اليزيد أبو العزم
*فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي- نهضة مصر- القاهرة
*فلسفة عبد القاهر النحوية في دلائل الإعجاز- فؤاد مخيمر ـــ دار الثقافة ـــ ١٩٨٣م
*الكتاب – سيبويه- تحقيق عبد السلام هارون- ط٣- نشر الخانجي- القاهرة -١٩٨٨م
*الكشاف، للزمخشري-ط٣-مطبعة مصطفى البابي اللحلبي بالقاهرة-١٩٦٦م
*المثل السائر ـــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـــ بمصر ١٩٣٩م
*مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة-الجزء السابع والأربعون-مايو ١٩٨١
*المدارس النحوية - د. شوقي ضيف – دار المعارف بمصر
* المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث لرمضان عبد التواب-الطبعة الثانية-مكتبةالخانجي- ١٩٨٥م
*مدخل إلى علم لغة النص- د/إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد- الطبعة الثانية-الهيئة المصرية العامة للكتاب-١٩٩٩م
*مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة-للأستاذ علي النجدي ناصف-دار المعارف بالقاهرة١٩٨١م
*مغني اللبيب- ابن هشام تحقيق د/مازن المبارك -الطبعة الأولى- دار الفكر-بيروت-١٩٩٨م
*مفهوم القوة والضعف عند سيبويه وأثره في التقعيد النحوي دكتواره عيشةأبو الفتوح الحداد - دارسات إسلامية وعربية بالإسكندرية إشراف حامد أحمد نبيل٢٠٠٢م
*مقدمة ابن خلدون-دار القلم-بيروت١٢٥٤/٤

*من وحي الزيادة في القرآن الكريم للأستاذ علي النجدي ناصف- مجلة مجمع اللغة العربية الجزء السابع والأربعون- مايو ١٩٨١م
*مناهج البحث البلاغي للدكتور عبد السلام عبد الحفيظ- دار الفكرالعربي-القاهرة
*منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم وتوجيه قراءاته ومآخذ بعض المحدثين عليه للدكتور سليمان يوسف خاطر- ط٣-مكتبة الرشد بالرياض-٢٠٠٨م
*الموافقات في أصول الأحكام- الشاطبي- تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد- مطبعة المدني – القاهرة ١٩٦٩
*الموافقات في أصول الفقه لأبي إسحاق الشاطبي- ط دار المعرفة – بيروت
*نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر بن زياد البغدادي- تح محمد عبدالمنعم خفاجى-ط١- المكتبة الأزهرية للتراث –القاهرة –٢٠٠٦م
*الوساطة – تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار إحياء الكتب العربية ــ عيسى البابي الحلبي وشركاه ــ ١٩٦٦م
Bohas, G.et al.(1990) :Arabic linguistic tradition; Routledge ; London
Peter Trudgill:Science of language Oxford
john lyono : op. cit.

الهوامش والإحالات :

(١) الخصائص لابن جني،تح محمد علي النجار،عالم الكتب،بيروت١/٣٣
(٢) مقدمة ابن خلدون،دار القلم،بيروت٤/١٢٥٤
(٣) العوامل النفسية وأثرها في التطور اللغوي،د/إسماعيل أبو اليزيد أبو العزم صــ١٠٥٤
(٤) نقد الشعر لقدامة بن جعفر-تح محمد عبدالمنعم خفاجى-ط١-المكتبة الأزهرية للتراث- ٢٠٠٦م صــ٥١، ٥٢
(٥) الوساطة- تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار إحياء الكتب العربية ــ عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٦م – صــ٤٣٦

(٦)المثل السائر ــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ بمصر ١٩٣٩م– ٢٨٨/١
(٧) المثل السائر ١/ ٢٨٣
(٨) المثل السائر ٢/ ١٦٤
(٩) قام البدراوي زهران ببحث عنوانه "عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني " وقد رجعت إلى الطبعة الثالثة منه ١٩٨٦م ــ دار المعارف بالقاهرة
ارجع أيضًا إلى: " فلسفة عبد القاهر النحوية في دلائل الإعجاز" لفؤاد مخيمر ــ دار الثقافة ــ ١٩٨٣م
(١٠) عالم المعرفة (سيكولوجيّة اللغة والمرض العقلي) – د. جمعة سيّد يوسف–رقم ١٤٥– الكويت–يناير ١٩٩٠م– صـ٣٩.
(١١) سيبويه : الكتاب (هذا باب ما جرى من الأسماء التى لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التى أُخذت من الفعل)١/٣٤٣،(هذا باب ما يُضْمَرُ فيه الفعلُ المستعمَل إظهارُه بعد حرفٍ)١/٢٧١ ،٢٧٢،(هذا باب ما يَنْتصب على إضمار الفعل المتروك إظهارُه استغناءً عنه) ٢٧٥/١
(١٢) سيبويه : الكتاب (هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة) ٢٥/١.
(١٣) سيبويه : الكتاب (باب ما ينتصب من الأماكن والوقت) ٤٠٣/١.
(١٤) انظر : **john lyono : op. cit. p 574–585**
(١٥) سيبويه : الكتاب (هذا بابٌ أيضاً من المصادر يَنتصب بإضمار الفعل المتروك إظهارُه)٣٢٤/١ ، ٣٢٥.
(١٦) سيبويه : الكتاب(هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره فى غير الأمر والنهي) ٢٥٧/١.
(١٧)الكتاب(هذا بابٌ يُحْذَفُ منه الفعل لكثرته فى كلامهم) ٢٨١/١،٢٨٠
(١٨)الكتاب(هذا باب تسمية المذكر بالمؤنث)٢٣٧/٣
(١٩)الكتاب٥٦٦/٣(باب المؤنث الذي يقع على المؤنث والمذكر وأصله التأنيث)
(٢٠) د. شوقي ضيف المدارس النحوية – دار المعارف بمصر– صـ٧٥.
(٢١)الشاطبي – الموافقات في أصول الأحكام – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد– مطبعة المدني – القاهرة ١٩٦٩– ٧١/٤.
(٢٢)راجع ذلك في الكتاب(هذا باب ما يَحسن عليه السكوتُ في هذه الأحرف) ١٤١/٢ ،١٤٢– ٨١/١، ٩٣، ٩٦، ١٠١، ١٠٢– ١٦١/١–١/ ٢٥٧

(٢٣)الكتاب ١/ ٢٤ ، ٢٥ ،٣/ ١٠٥
(٢٤)الكتاب ١/ ٢٨٠، ٢٨١
(٢٥)الكتاب ٣/ ٤٩٩،٤٩٨
(٢٦)الكتاب٢/ ٢١٥،٢١٤،٢١١
(٢٧)الكتـــــــــــاب ١/ ١٦٦،١٦٥، ١/ ١٥٨،١٥٧، ١/ ١٦١، ٤/ ١٠، ٢/ ١٦٣، ١، ١٦٤/ ٢٥٤،٢٥٣
(٢٨)الكتاب٢/ ٢١٩،٢١٥،٢١٤،٢١١
(٢٩)الكتاب٢/ ٢١٥،٢١٤،٢١١
(٣٠)الكتاب٢/ ٢١٤،٢١١، ٢١٩،٢١٥
(٣١)الكتاب ١/ ٢٧٣: ١،٢٧٧/ ٢٨٢: ٢٨٤
(٣٢)الكتاب ١/ ٣٠٧
(٣٣)الكتاب ١/ ٢٧٧
(٣٤)الكتاب (باب ما لا يعمل في المعروف إلا مضمَرًا) ٢/ ١٧٦
(٣٥)الكتاب (بابٌ يكون المبتدأ فيه مُضمَرا) ٢/ ١٢٠
(٣٦)الكتاب (هذا باب ما يُضْمَرُ فيه الفعلُ المستعمَل إظهارُه بعد حرفٍ)١/ ٢٥٨
(٣٧) دفاع عن البلاغة للزيات– ط٢ – الاستقلال – صـــ١١، ١٣.
(٣٨) الكتاب لسيبويه ١/ ٢١٢ (باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى).
(٣٩) أحمد مصطفى المراغي – تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها صـــ٤٤.
(٤٠) Bohas, G.et al:(1990) :Arabic linguistic tradition; Routledge ; London ; pp;31-48.
(٤١) مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة، للأستاذ علي النجدي ناصـــف،دار المعـــارف بالقاهرة١٩٨١م.ص٨٦
(٤٢) الكتاب(باب عدة ما يكون عليه الكلم) ٤/ ٢٢١ ، ٣/ ٧٦، ١/ ١٨٠ ، ١٨١
(٤٣) الكتاب(هذا باب متصرَّف رُوَيْد) ١/ ٢٤٤ ، ٢٤٥
(٤٤) الكتاب(هذا باب ما يَعْمَلُ عَمَلَ الفعل ولم يَجْرِ مَجرى الفعل ولم يَتمكّن تمكُّنَه) ١/ ٧٣
(٤٥) انظر: من وحي الزيادة في القرآن الكريم ص٤٢ للأستاذ علي النجدي ناصف، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة،الجزء السابع والأربعون،مايو ١٩٨١ ، مع القرآن الكريم في دراســة مستلهمة ص٨٨، للأستاذ علي النجدي ناصف،دار المعارف بالقاهرة١٩٨١م.

(٤٦) على غرار ما ذكرناه تحت حديثنا عن الحال والمقام عند سيبويه في قوله" وذلك قولك، إذا رأيتَ رجلاً متوجِّهًا وِجْهَةَ الحاجّ، قاصدًا في هيئة الحاجّ، فقلت: مَكّةَ وربِّ الكعبة...كأنك أخبرتَ بهذه الصفة عنه..."

(٤٧) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس، حققه وقدم له مصطفى الشويمي، مؤسسةأ/بدران،بيروت ١٩٦٤م ص٥٣

(٤٨) الكتاب ١٩٩/٤

من شواهد ذلك قولهم: (من الطويل في ظاهرة الكشكشة)

فعيناشِ عيناها، وجيدُشِ جيدُها ولكنَّ عظمَ الساقِ مِنْشِ رَقيقُ

(٤٩) الكتاب٢/٢٢٧ (هذا باب مالا يجوز أن يندب)

(٥٠) الكتاب ١/١١٩ ، ١٢٠،وانظر:مناهج البحث البلاغي للدكتور عبد السلام عبد الحفيظ، دار الفكرالعربي،القاهرة، صـ٧٢.

(٥١)الكتاب١/٣٤ وراجع ذلك أيضًا في أبواب:(تقديم المفعول على فعله) الكتاب١/٨١، و(تقديم خبر كان وأخواتها على اسمها) الكتاب ١/٥٤،٤٧،٤٥ ،و(تقديم شبه الجملة على الخبر) الكتاب ١/٥٦،و(تقديم المفعول الأول على المفعول الثاني) الكتاب ١/٤٢، و(تقديم خبر إن على اسمها) الكتاب ٢/١٤٣

(٥٢) إشارة إلى ما سبق

(٥٣)الكتاب ١/١٣٨، ١٤٢

راجع ذلك أيضًا في أبواب:(الابتداء والتقديم للاسم على الفعل) الكتاب ١/٨١،٨٠، و(الابتداء والتقديم للاسم على الفعل في الاستفهام) الكتاب ١/١٢٧

(٥٤) البيان في روائع القرآن، د/تمام حسان ٢/٧٧

(٥٥)الكتاب٢/٣٤٤، ٣٤٥

راجع الحذف إيثارًا للخفة في الكتاب١/١٦٦،١٦٥، ١٩٥، ٢٦٦،٢٢٤، ٢٠٣،٣٣٧، ٢١٠، والكتاب ٢/٢٣٩،١٧٩،١٦٢،١٦٣،١٦٠ ، ٣٤٤،٢٤٨،٣٤٥،٣٤٥ ،٢٥٥،٣٤٦، والكتاب ٣/٥٣٠،١٩٣،٣٧١،٣٥٥، والكتاب ٤/ ١٠٨،٣٦، ١١٣، ١٥١

(٥٦)الكتاب(باب الصفة المشبَّهة بالفاعل فيما عَمِلتْ فيه) ١/٢١٠.

(٥٧) الكتاب(هذا باب الفعل الذي يَتعدّى اسمَ الفاعل إلى اسم المفعول واسمُ الفاعل والمفعولِ فيه لشيء واحدٍ)١/٤٨

(٥٨) الكتاب (هذا باب متصرَّف رُوَيْد) ١/٢٤٤

(٥٩) راجع ذلك في: الحديث عن(معمول كان وأخواتها)الكتاب١/٥٤، ٥٠، ٤٩، ٤٨ ـ(باب يُختار فيه أن تكون المصادر مبتدأة مبنيًّا عليها ما بعدها...) الكتاب١/٣٢٨ـ(باب ما لا يجوز أن يُنْدب) الكتاب٢/٢٢٧، ٢٢٨

(٦٠) أشرت إلى ذلك في "الميل إلى التقديم والتأخير"

(٦١) أشرتُ إلى ذلك في " الميل إلى الإضمار"

(٦٢) بل تجاوز الحديث عن أمن اللبس في التعريف والتنكير إلى الأغراض النفسية منه.

(٦٣) الكتاب(هذا باب من الاختصاص يجري على ما جرى عليه النداء)٢/٢٣٤، ٢٣٥

(٦٤) مغني اللبيب، ابن هشام تحقيق د/مازن المبارك ، ،الطبعة الأولى، دار الفكر ،بيروت،١٩٩٨م، صـ٣٦٣.

(٦٥) مدخل إلى علم لغة النص، د/إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، الطبعة الثانية،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، صـ١٥٨، ١٥٧.

(٦٦) ففي(باب الفاعلين والمفعولين اللذين كلّ واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يَفْعَلُ به وما كان نحو ذلك) عند تعليقه على قول امرىء القيس:

فَلَو أنْ مَا أَسْعَى لأَدْنَى مَعِيشَةٍ   كَفَاني،ولَمْ أَطْلبْ،قَلِيلٌ مِنَ المَالِ

فيقول: "فإنما رَفَعَ لأنّه لم يجعل القليلَ مطلوبًا ، وإنما كان المطلوب عنده المُلكَ، وجَعَلَ القليل كافيًا، ولو لم يرد ذلك ونصب فَسَدَ المعنى" الكتاب١/٦٩، ٧٩

ونظائر ذلك في الكتاب كثيرة التي استمر فيها سيبويه يؤكد على ارتباط اللغة عامة أو الحكم الإعرابي بمقاصد النفس؛ فانظر في ذلك (باب يختار فيه الرفع) الكتاب١/٣٦١، ٣٨٥، ٣٦٢ و(باب إجراء الصفة فيه على الاسم في بعض المواضع أحسن...) الكتاب٢/٤٩ومابعدها و (باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه) الكتاب ٢/٧٤، ٧٣

(٦٧) "النظم عبارة عن توخي معاني النحو فيما بين الكلم" دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني صـ٦٢

(٦٨) الكتاب(هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة)١/٢٥، ٢٦

(٦٩) (باب ما ينصب فيه الألف) الكتاب١/١٠٧

(باب ما ينتصب فيه الصفة لأنه حال وقع فيه الألف واللام)الكتاب ١/٣٩٩

(باب الواو التى تدخل عليه الاستفهام) الكتاب ٣/١٨٧، ١٨٨

(باب الإضمار فيما جرى مجرى الفعل) الكتاب ٢/٣٦١، ٣٦٢

وانظرأيضًا الأحكام اللغوية لسيبويه بـ (الحسن أو القبيح) الكتاب ١/١٠٧، الكتاب ٣/٦٠

(٧٠) الشفاء لابن سينا، تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور، تحقيق محمود الخضيري، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م ، صـ ٢ـ٣

(٧١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، ١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م،صـ ٢٨٢

(٧٢) الكتاب(هذا باب ما جرى من الأسماء التى من الأفعال وما أشبهها من الصفات التي ليست بعمل نحو الحسن والكريم وما أشبه ذلك مجرى الفعل إذا أظهرتَ بعده الأسماء أو أضمرتَها) ٣٨/١

ومن ذلك أيضًا "يخالف سيبويه يونس في نصب المسكين حيث يرى يونس أن قولك مررت به المسكين (بنصب المسكين) انتصب المسكين لأنه حاله ويرفض سيبويه ذلك معللاً بعلتين:

الأولى:أنه معرف بالألف واللام.

الثانية: إمكان حمله على الأحسن وهو تضمين مررت معنى لقيته فيكون مفعولاً به.

والعلة الأولى من وادي الصناعة النحوية.

والثانية من دنيا المعاني السليمة"انظر الكتاب(هذا باب ما جرى من الأمر والنهى على إضمار الفِعل المستعمَلِ إظهارُه إذا عَلِمْت أنّ الرجل مُسْتَغْن عن لَفْظِكَ بالفِعل)٢٥٦/١،والعلل النحوية لمبروك عطية ط١٩٩٥،١م صـ١٨٣

(٧٣)"إن التوسُّع اسم يقع على جميع الأنواع المجازية كلِّها، واشتقاقه من السعة، وهو نقيض الضيق، فالضيق قَصْرُالكلام على حقيقته من غير خروج عنها، والتوسُّع شامل لما ذكرناه من أنواع المجازات، فإطلاق التوسُّع على ما يندرج تحته من أنواع المجاز بمترلة إطلاق الكلمة على ما يندرج تحتها من أنواعها الخاصة: الاسم والفعل والحرف، وهكذا اسم المجاز، فإنه شامل لأنواعه من الاستعارة والكناية والتمثيل، فَهُمَا سِيَّان كما ترى في إفادة ما تحتهما من هذه الأنواع وليسا مُختَصَّين بنوع من المجاز دون نوع...." "الطراز للعلوي١٩٧/١.

(٧٤)المجاز العقلي يقوم على الإسناد، وذلك الإسناد يقتضي تعدد الألفاظ، ولا يكون في اللفظ المفرد؛ لذا فإن المكان المناسب له يكون علم المعاني وليس علم البيان.(انظر:الأصول للدكتورتمام حسان صـ٣٦٥، وبغية الإيضاح للخطيب القزويني ٦٧/١)

(٧٥) (باب من الفعل يُبْدَلُ فيه الآخِرُ من الأوَّل ويُجْرَى على الاسم، ويُنْصَبُ بالفعل لأنه مفعول) الكتاب١٦١/١، ١٦٠.

(باب جرى مَاينتصب فيه المصدر كان فيه الألف واللام أو لم يكن فيه على إضمار الفعل المتروك إظهاره..) الكتاب٣٣٦/١، ٣٣٧.

(٧٦) الكتاب ٢١٢/١، ٢١١، ١٧٦، ١٧٥.

(٧٧) انظر: الكشاف، للزمخشري،ط٣،مطبعة مصطفى البابي اللحلبي بالقاهرة، ١٩٦٦م،١/٢١٤

(٧٨)فقه اللغة للدكتور عبد الواحد وافي صـ٢٣٣،٢٣١.

(٧٩) شذرات الذهب لابن العماد، ط١،مكتبة القدسي،القاهرة،١٣٥٠هـ، ١/٢٥٢.

(٨٠)الكتاب٢/٢٣١.

(٨١)الكتاب٢/٢٩٨ ،٢٩٩و ٤/ ٢٠٤، ٢٠٦،٢٠٥ (باب وجوه القوافي في الإنشاد).

(٨٢) الكتاب(باب الوقف في آخر الكلم ؟ المتحركة في الوصل التي لا تلحقها زيادةٌ في الوقف)٤/ ١٦٩،١٦٨

(٨٣)الخصائص٢/ ٣٧١، ٣٧٠ تح محمد على النجار دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت ط٢

(٨٤) الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس–الطبعة الخامسة–مكتبة الأنجلو المصرية–١٩٧٩م– صـ١٢٣

(٨٥)المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث لرمضان عبد التواب–الطبعة الثانية–مكتبةالخانجي–١٩٨٥م صـ١٠٦

(٨٦)الكتاب ٣/٥٧٨(باب تكسير الواحد للجمع).

(٨٧)الكتاب ٤/ ٢٠٤، ٢٠٦،٢٠٥ (باب وجوه القوافي في الإنشاد).

(٨٨)الكتاب١/٧٩ (باب الفاعلين والمفعولين اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك).

ومن ذلك رأيه في قول الفرزدق:

أَلَم تَر أَنَّا بني دَارمٍ زرارةُ مِنَّا أبومَعْبدِ

فإنما اختُص الاسمُ هنا؛ ليُعرَف بما حُمِل على الكلام الأول، وفيه معنى الافتخار" الكتاب ٢/٦٦ (باب من الاختصاص يجري على ما جرى عليه النداء)

ومن ذلك رأيه في قول الشاعربالكتاب ١/٣٤٣، ٣٤٤ (باب ما جرى من الأسماء التى لم تُؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التى أُخذت من الفعل)

ومن ذلك رأيه في قول أبي الأسود الدؤلي الكتاب ١/١٤١، ٣١٤، ٢/ ٧٦ (باب الأمر والنهي)

ومن ذلك رأيه في قول عُرْوة الصَّعاليكِ العبسي بالكتاب ٢/٧٠ (باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه)

ومن ذلك رأيه في قول حسان بن ثابت بالكتاب ٧٣/٢، ٧٤(باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه)

ومن ذلك رأيه في قول لبيد بالكتاب ٢٣٤/٢، ٢٣٥ (باب من الاختصاص يجري علـــى مـــا جرى عليه النداء)

ومن ذلك رأيه في قول الشاعر بالكتاب ٢٨٠/١

ومن ذلك رأيه في قول الأخطل بالكتاب ٤١٦/١، ٤١٧ (باب ما شُبِّه من الأمكان المختص بالمكان غير المختص)

ومن ذلك رأيه في قول الأحوص بالكتاب ١/ ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤(باب ما شُبِّه من الأمكان المُختصَّ بالمكان غير المختص)

(٨٩)انظر:الموافقات في أصول الفقه ٤/ ١١٤-١١٦ لأبي إسحاق الشاطبي ط دار المعرفة – بيروت ، مفهوم القوة والضعف عند سيبويه وأثره في التقعيد النحوي دكتـــوراه عيشـــةأبو الفتوح الحداد ٢٠٠٢م دارسات إسلامية وعربية بالإسكندرية إشراف حامد أحمـــد نبيـــل صـــ٣٩

(٩٠) الكتاب ١٤١/١، ٣١٤، ٢/ ٧٦ (باب الأمر والنهي)

انظر أيضًا (باب الأفعال في القسم) الكتاب ١٠٦/٣،(باب ما جرى من الأسماء التى لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التى أخذت من الفعل" الكتاب ٣٤٣/٢، ٣٤٥

(٩١)الكتاب١٨٧/٣، ١٨٨(باب الواو التي تدخل عليها ألف الاستفهام)

(٩٢)الكتاب٤١٩/٢ ،٤٢٠ ،٤٢١(باب ما تلحقه الزيادة في الاستفهام)

(٩٣)الكتاب٣٤٠/١: ٣٤٣ (باب ما ينتصب من الأسماء التي أخذت من الأفعـــال انتصـــاب الفعل،استفهمتَ أو لم تستفهِم)

(٩٤)الكتاب١٧٠/٣ (هذا بابَ أم وأو).

(٩٥)الكتاب١٧٠/٣(هذا باب أم وأو).

(٩٦)الكتاب٣٤٤/١(هذا باب ما جرى من الأسماء التى لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء الـــتى أُخذت من الفعل).

(٩٧)الكتاب٣٤٨/١، ٣٤٩، ٣٥٠(باب ما يجيء من المصادر مُثَنًّى منتصِبًا).

(٩٨)الكتاب٢٠٢/١(باب الصفة المشبهة بالفاعل فيما عملت فيه).

(٩٩) **Peter Trudgill:Science of language Oxford PP.100-106**

(١٠٠)الكتاب١٤٢/١(هذا باب الأمر والنهى).

(١٠١)انظر: منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم وتوجيه قراءاته ومآخذ بعض المحدثين عليه للدكتور سليمان يوسف خاطر، ط٣،مكتبة الرشد بالرياض،٢٠٠٨م، صـ٧٨

(١٠٢) الكتاب(هذا بابٌ من النكرة يَجرى مجرى ما فيه الألفُ واللام من المصادر والأسماء) ٣٣٢/١، ٣٣١، وينظر ٢٣٣/٤

وعلى غرار ذلك التعبير النحوي عن اسم"الله" بكلمة "لفظ الجلالة" بأن اللفظ مفعول به أو مكسور أو...

وعلى غرار ذلك التعبير النحوي التراثي عمَّا نسميه الآن بـ"المبني للمجهول" في أمثال الآيات القرآنية "خُلِقَ الإنسان..." بأن الفعل هنا "مَبْنِيّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه"؛ حتى لانقع في الكفر بالله إذا قلنا المصطلح الشائع حاليًّا بأنه"مبني للمجهول".

(١٠٣)الكتاب٢/٢٢٩ ، ٢٣٠(باب الحروف التى يُنبَّه بها المدعو).

(١٠٤)الكتاب٢/٢٢٩ ، ٢٣٠.

(١٠٥)الكتاب٢/٢٣١: ٢٣٤.

(١٠٦)ويقاس على ذلك أيضًا تسمية حروف (و،ا،ي) بحروف العلة، حملاً على أَنَّات العليل لما فيها من أَنَّات وموت.

(١٠٧)الإضمار للتخفيف: الكتاب ١/ ١٦٥، ١٦٦، ١/ ١٥٨،١٥٧، ١/ ١٦١، ٤/١٠، ١٦٣/٢ ، ١٦٤، ١/ ٢٥٤، ٢٥٣

وللاتساع : الكتاب٢/٢١٩،٢١٥،٢١٤،٢١١

وللإيجاز: الكتاب٢/٢١٥،٢١٤،٢١١

(١٠٨) (باب من الفعل يُبْدَلُ فيه الآخِرُ من الأوَّل ويُجْرَى على الاسم، ويُنْصَبُ بالفعل لأنه مفعول) الكتاب١/١٦١،١٦٠.

(باب جرى مَاينتصب فيه المصدر كان فيه الألف واللام أو لم يكن فيه على إضمار الفعل المتروك إظهاره..) الكتاب١/٣٣٦، ٣٣٧.

(باب جرى مجرى الفاعل الذي يتعداه فعلُه إلى مفعولين في اللفظ لا في المعنى)الكتاب ١/٢١٢،٢١١،١٧٦،١٧٥.

(١٠٩) سيبويه إمام النحاة، على النجدي ناصف، ط دار الكتب صـ١٦٨، ١٦٩ ، المدارس النحوية، شوقي ضيف، ط دار المعارف، صـ٨٣،٨٢

(١١٠)المدارس النحوية، شوقي ضيف، ط دار المعارف، صـ75

(١١١) الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي،تحقيق محمد محيي الدين ط المدني القاهرة١٩٦٩م ج٤صـ٧١